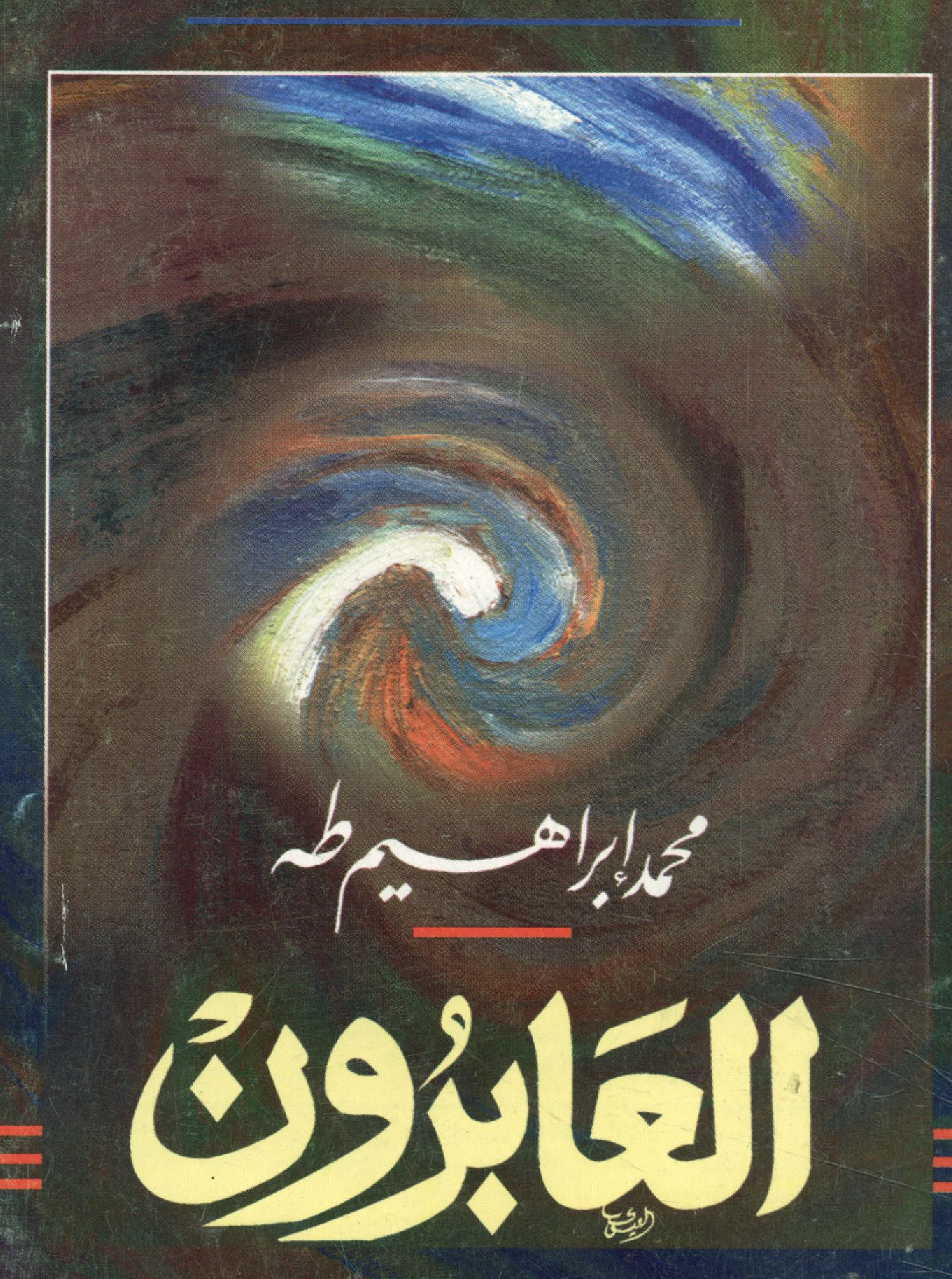
روايات الهلال



محمد إبراهيم طه

العابرون

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى تصدر عن مؤسسة دارالهلال

الإصدار الأول - يناير ١٩٤٩

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها مصريا داخل (ج. م. ع) تسدد مقدما نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا.

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دارالهلال.
ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الإدارة

القاهرة:
١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات:
ص.ب: ٦١العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.
تلكس:
Telex 92703 hilal u n
فاكس:
FAX: 3625469

رر ١٧٢٢ ق

٢ فلس - الكويت ٢٥٠ ,١فلس
١١ ريالا - الإمارات ١٢ درهما
ل - المغرب ٤٠ درهما -

البريد الإلكترونى:
darhilal @ idsc. gov. eg

العابرون

محمد إبراهيم طه

دار الهلال



تصميم الغلاف

محمد أبوطالب

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية :

سهام وهدان

تحضرون دائماً .. ويغيب المقيمون

إلى: إبراهيم طه، مرة ثانية

بلا مقدمات فيما يبدو ، ارتفع مؤشر الحرارة . وقعت عيناه عليه صدفة فراعته السخونة . توقف . خاض فى أرض زراعية . طرق أكثر من بيت . بدا أن أحدا لا يقيم هنا . كان الطريق موحشا . لا سيارات ، ولا مارة ولا ميكانيكى . فقط : سماء قريبة ، وشمس تسطع فى وجهه . من مساحات النخيل خمن أنه فى نطاق المرج ، خارج القاهرة. يخوض من بيت إلى بيت ، يطرق الأبواب المتناثرة بفزع ويتساءل : ما الذى جعله يسلك طريقا دائريا كهذا لم يفتتح بعد ، إلى كلية طب عين شمس ، فى يوم الامتحان الشفوى لأمراض النساء والولادة ؟

لاح من بين النخيل باب موارب لكوخ منخفض ، أسفل أسلاك الضغط العالى . فيما بدا أنه لا يوجد أحد بالداخل ، وقبل أن ينادى ، جاءه الصوت واثقاً :

- لا تجئ إلا عندما نعطل سيارتك ؟

تحقق من مصدر الصوت. لا أحد هنا يعرفه ، أول مرة يسلك هذا الطريق . تراجع للخارج . تهادى الصوت معاتبا ، كأنه لا يوجه كلامه لأحد :

- يعنى لا تجئ إلا حينما نطلبك .

عرفه :

- غير معقول .. شيخ سيد ؟

ارتمى فى حضنه ، يقبله ويعانقه ، متعجبا وغير مستوعب بعد لهذه الصدفة . نقره فى رأسه وابتسم :

– من قال يا ولد إنها صدفة ؟

أربعة عشر عاما مرت منذ افترقا لم يره . قال فى نفسه: إنه سينتهى من امتحان اليوم وسوف تتكرر زياراته .

– هل تظن أنها ستتكرر فعلا ؟

– وما المانع ؟ عرفت مكانك أخيراً .

لم يرد، وحدق فى سقف الكوخ . أوحشته كلماته الرامزة وصمته المتأمل . سأله عن البلد ، وأحواله ، وأحوال الإخوان ، وقبل أن يوضح أنه على موعد ضرورى ، وأنه سيعيد الأيام الخوالى ، بحثت عيناه عن ماء فلم يجد . فكر أن لا يطيل الكلام ويستأذن ، لكنه سأله :

– لم تسألنى لماذا طلبتك ؟

– وهل طلبتنى ؟ .. جئت لأمتحن ، وسخنت السيارة فنزلت أبحث عن ماء .

لاحظ أنه مريض بالكبد ، وأنه يتوه غالبا كأنه يحلم . برزت بطنه من تحت الجلباب ، واتخذت ملامحه الشاحبة لون الأرض . تجبره كرشة النفس على تقسيم الجمل، والاستراحة فيما بينها فترات طويلة.

– متأكد ؟

– يعنى ..

– هل تذكر آخر كلمة بيننا .. منذ أربعة عشر عاما ؟

– طاقية واحدة لا تكفى رأسين .

– هى كذلك .. لا تكفى .

ازدحمت شقته ذات الحجرتين بزواجه ، ومجئ إبراهيم ، وغضب أخته ، ثم طلاقها بطفليها ، وأبيه وأمه وأخوته . نزح إلى المرج ، عند أهل زوجته . أخذ إجازة طويلة من عمله وسافر إلى العراق . فى مقام سيدى عبد القادر

الجيلانى سمى مولوده الثانى محمد . أمام مقصورة سيدى أحمد الرفاعى سمى البنت أسماء . لم يعد بنقود . عاد كما ذهب بنفس المسبحة ذات العداد الذى يعد حتى مائة ألف ، ونفس الجلباب الذى رآه عليه منذ أربعة عشر عاما .

فى عجلة سأله عن أم الأولاد . قال إنها الآن قادمة من الحى . تناطح فيهم ويناطحون فيها ، من أجل الكهرباء . تقضى النهار هنا والليل عند أهلها . دخلت وهى تردد بزهق ما يقولونه لها كل يوم :

– مخالف يا سيد وعشوائى وتحت أسلاك ضغط عال !

– هذا النور .. ألا يكفى ؟

– نريد كهربا يا سيد .. كهربا .

– بعد أن أموت .. ربنا سيفرجها .

– يا سيد تجاوزت الأربعين .. فكر مرة فينا .

اقترح لينهى محاورة قد تطول ، أن يذهب الشيخ سيد إلى الحى بنفسه . لم يكن خافيا أنها كانت تحكِّمه ، ولم يكن خافيا أنه كان متعجلا ، فبدا اقتراحه كأنه حُكم ، حتى أنه شعر بذلك ، فوعده بأنه سيذهب قريبا .

ابتسم ليخفف من حدة حكمه :

– يعنى قريبا إن شاء الله ؟

ممتثلاً أومأ برأسه ، ففرحت زوجته التى حفيت قدماها من السؤال عن الطلب الموقوف فى الحى منذ سنوات طويلة ، لأنه أخيرا سيريهم نفسه ، ليعلموا أنه صاحب المكان ، الذى يضيئه تماما الآن الضوء القادم من الكوة الخلفية بالكوخ . تاه قليلا وهو مضطجع على سريره . نفس السرير الذى كان فى الشقة ذات الحجرتين ، تتحرك فقط مسبحته كأنه يسبح فى سره ، أو كأنه فى غيبوبة ، ينتبه كعادته منتفضا كلما يصدر صوت يقطع عليه سكونه قائلاً : الله . كى لا يفوته الامتحان ، استأذن مواسيا ومشجعا :

– شد حيلك يا عم الشيخ .

- لم تسألنى لماذا طلبتك؟

ربت كتفه بإشفاق وهو يقوم :

- سأنتهى من الامتحان وأعود لنتكلم براحتنا .

فيما وضح أنه لم يعد قادرا على شئ ، كان إبراهيم ومحمد ينظران نحوه وهو خارج ، وأمهما تحثهما أن يسلما عليه ، وأسماء تركض بالخارج. أربعة عشر عاما لم يره معاينة إلا الآن . دون أن يستأذن ، كان يصعد إلى مقعده العلوى ، أو الشقة المزدحمة ذات الحجرتين . تذكر وهو بجوار السيارة أنه طرق أبوابا كثيرة لم يرد أصحابها ، فتساءل فى نفسه هل استأذن وهو يدخل الكوخ ؟

نسى الماء ، وأدار السيارة فدارت . فضل ألا يعود حتى لا يتأخر أكثر . أمام الكلية كان قد تأخر عن الموعد ساعة كاملة . هل يلغى الامتحان ؟ وجد الدموع تهطل من عينيه حقيقة ، وهو يصعد السلالم ، ويهرول فى الردهات . وهو يعتذر عن التأخير بسبب حالة وفاة ، قالت سكرتيرة قسم النساء التى رأته مضطربا :

- ما الذى جاء بك اليوم يا دكتور .. ألا تعلم أن الامتحان غدا ؟

لم تكن صدفة إذن حين رفع عينيه عصر ذلك اليوم البعيد ، وسط الحقول، فرآه واقفا أمامه – كأنه منذ فترة – مادًا يده . سلم بحرارة المعتذر عن الغفلة ، فقال بعض الكلمات وكان قد أنهى لتوه القرآن حفظا وتلاوة . وضع يده في يده مرة أخرى وأكد : هل قبلت ؟ قال : ماذا ؟ فقال : العهد ؟ هز رأسه ، فسأل : وهل تصونه ؟ تمتم مجاملا : نعم . ما أعطيته لك غال . قال : شكراً ، فابتعد حتى تلاشى فى الحقول الواسعة بين العصر والمغرب .

سأل نفسه : ما العهد ؟ فقال له فى اليوم التالى : حين تراودك الأسئلة الجوفاء عن نفسك ، دعها وسلم الأمر إليه . قال فى نفسه : وما الذى أدراه؟ فأنشد أول ما لقيه فى اليوم التالى :

قلوب العارفين لها عيون ... ترى مالا يراه الناظرونا

جال بخاطره : لماذا اختارنى ؟ فقال فى نفس اللحظة : «ليس لى من الأمر شئ .. أسأله ، يطلبه المجتهدون فلا يصلون ، ويطلب هو من يريده ».

صار ملتقاهما الحقول ، والمصليات المفروشة بقش الأرز بدرجاتها الحجرية الهابطة إلى النهر ، بين العصر والمغرب. أوقات هادئة ومترامية وناعمة وموائمة لتأملاته وأسئلته التى يطرحها وينزعج منها أستاذ الدين ، عمَّن أخرج آدم من الجنة ، فيقول : إبليس . ومن الذى وسوس إلى إبليس – وكان خيِّرا قبل ذلك – بأن يعصى ربه ويوسوس إلى آدم ؟ فيضربه أستاذ

الدين ويخرجه من الحصة ويجيبه هو . وحين سأله عن معنى الشطر الثانى من الحديث الملصق خلف باب حجرته : حسين منى وأنا من حسين ؟ قال : لا يدخل أحد الحضرة المحمدية إلا عن طريق الحسين أولا ، أفهمت ؟

كماء البحر ، كلما شرب منه يشعر بالعطش . شيخ ومريد لا يفصل بينهما سوى خمس سنوات ، إلا أنه أخبره بالكثير عن العشرة الكرام البررة، وخير الناس : الحمزة والعباس ، وعن السبطين ذوى الإخلاص والصفا ، ومن تناسل منهما ، وعن أختهما السيدة زينب وعن أمهما السيدة فاطمة الزهراء ، وعن جدتهما السيدة خديجة الكبرى ، وعن السيدة عائشة أم المؤمنين ، وأربعة ملائكة الله المقربين ، وأربعة خلفاء رسول الله الراشدين، وأربعة أئمة الدين ، وأربع سيدات نساء العالمين ، وعن الأربعة الأقطاب وعن السبعة العلماء. وذكر له أهل السلسلة، والباقين من المائة وأربعة وعشرين ألفا من أهل الطرق الصوفية، وأهل الديوان .

فى المصلى ، كانا ينهيان أوراد العصر : الأساس ، الفواتح ، التحصين الشريف ، صلاة ابن بشيش ، الحزب الصغير والحزب الكبير ، ثم يتركه لأوراده الأخرى ويقرأ هو كتب الفقه والحديث والسيرة والتوحيد . لا يخرجهما سوى المغرب المتناهى من المآذن البعيدة . قال : ظمآن ، فنزع الكتب من يده وقال :

– لن يرويك سوى علم موهوب من لدن علام الغيوب .

– لا أفهم .

– من تشرَّع ولم يتحقق فقد تزندق ، ومن تحقق ولم يتشرَّع فقد تفسَّق .

لم يفهم ، فأخذه من يده :

– آن الأوان أن تسلك .. «الرحمن فاسأل به خبيرا» .

أعطاه الحزب السيفى وحزب البحر ، والصلاة المحمدية ، وقال إن الخلوة لم تعد شرطا ، والأوراد تقرأ فى أى مكان . الذكر طلاء القلب وجلاؤه ، هو أسهل الطرق التى تفضى إلى المكاشفة والمشاهدة والمسامرة والمحادثة ، وما

المكابدة إلا مطية للتنقل فى المقامات والأحوال والمعارف ، وما السكينة والخلوة والجلوة إلا إسراء الروح من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، ومعراج التلقى والتدانى والتدلى .

كأنما كان يجذبه إلى عالم بعيد ، ساحر ومبهج ومريح ، لم يندمج مع أحد غيره ، ولم يسأل عنه سوى مرة واحدة : عم الشيخ سيد موجود ؟ فخرج أعمامه وسألوا : «ومن يكون عمك الشيخ؟» فقال : «عمى الشيخ سيد عبد العال» فضحكوا جميعا ، ونادوا فى صوت واحد : «واد يا سيد ... يا شيخ سيد .. يا عم الشيخ سيد .. يا مولانا .. ضيف» كأنما كانت عيناه اللامعتان تعتذران وهو يفتح الباب ، ويتلو : «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» ثم أعطاه حزب النصر ، بعدها لم ير منه - وقتما يجئ بخاطره - سوى أن يطل من شباكه قبل أن ينادى بثانية واحدة قائلا : «اصعد» ، حتى بعد أن تسلم عمله فى الضرائب العقارية ، وأجبر أعمامه أباه على بيع نصيبه فى بيت العائلة ، والإقامة بالأسرة فى شقة من حجرتين ، كان يزوره بها ، وكانت تتسع له ولزوجته وأبيه وأمه وأخوته وأخته المطلقة وابنيها ، قبل أن يضغط الجرس بثانية واحدة ، كان الباب يفتح : «ادخل! »

من الغرب إلى الشمال انحنى فرع دمياط فجأة ، فصنع ساحلا عريضا من الأرض الخصبة ، يفصل المجرى الحقيقى عن الطريق المرتفع ، وبدت من فوقه لأول وهلة جزيرة أولاد فهمى المزروعة بأشجار الموز الضخمة كحوض من عشب وسط الماء . كانت الجزيرة تصير إلى اتساع كلما هبط الدرجات الحجرية من الطريق إلى الساحل ، ويصير الموز أكثر ارتفاعاً وخضرة ، حتى يحجب القرى التى فى الجانب الآخر تماما . وما إن يجتاز ساحل الطمى المزروع بالذرة ونباتات الزينة ويصل إلى المجرى الحقيقى ، فإن الموز الذى يكون قد حجب تماما شمس الغروب ، يبدو قريبا جداً ، حتى إنه لا يصدق أن هذا المجرى الذى يفصله عن الموز يبلغ اتساعه مائة وتسع

وخمسين ذراعا ، إلا بعد أن ينظر خلفه فيرى الساحل ثم الطريق المرتفع بمائة وثلاث وأربعين درجة حجرية . يتعجب وهو يهبط خمس درجات حجرية أخرى حتى يصل إلى شفا الماء ، حيث أقام مصلاه المواجه تماما لجزيرة تبلغ مائتى فدان مزروعة بالموز . كان يتأمل بهمة فترات طويلة ، منتظرا أن يتلألأ النهر بالألوان ، وينفتح الأفق ، فيحدث إسراء الأسرار لا الأسوار ومعراج الأرواح لا الأشباح ، فتحدث الرؤية القلبية لا العينية . ينتظر بوجد محدقا فى الماء ، حيث لا وجود لبشر ولا شعور بوقت ، حتى يقوم حزينا لا يعرف ما الذى يمنع سفر القلب وسفر الروح . لا يحس بالبرودة والخوف إلا وهو يرتقى درجات السلم الحجرى ، حين يكون عليه أن يأخذ الطريق شمالا إلى المدينة ، وسط وشوشات عيدان الذرة المخيفة على جانبى الطريق ، تلمع أوراقها كنصال فى ضوء القمر ، ويكون وحده كآت من الغيب ، لا يدرك الوقت والاتجاه .

حين انبثق من وسط الطريق جنديان ، أحدهما ملثم والآخر مطموس الملامح ، كانا يسيران بظهريهما أمامه صامتين ، لا يبتعدان ولا يقتربان . وحين لاحت المدينة من بعيد وترامى ضوؤها الشحيح على تراب الطريق المصاحب للنهر ، تلاشيا فى صمت. فى اليوم التالى حين قابله سأله:

– لم خفت ممن أرسلتهما ليوصلاك أمس ؟

لم يرد ، وهز رأسه متعجبا .

قطعة صغيرة مثلثة . لا تصلح لشئ، كفضلة الثوب. بقيت من حقل كبير، غضب عليها جميع المشترين ، لوقوعها أسفل أسلاك الضغط العالى ، واحتمال ضياعها ضمن طريق دائرى تحت الإنشاء ، ولصعوبة المبانى فيها بشتى الطرق . قطعة مثلثة ظل الوصول إليها من داخل القاهرة مرهقا ، مرورا بعزبة النخل ثم قرى وعزب أخرى وطرق ملتوية على ترع تشق المرج أو تلتف حولها . وكان هو الذى يتكلم عن ثمنها الزهيد لأقاربه ، لا يعرف كيف يصف طريقة الوصول إليها ، حتى انتصبت فجأة أمام الطريق الدائرى كوخا مثلثا .

كان يقود مسرعا حتى يلتقى به ، وقد حز فى نفسه أن تكون آخر خطاياه أنه لم ينتبه لماذا طلبه ، وأن استقباله لم يكن موجها على نحو ما هذا الصباح للتلقى . خشى أن يكون فى الأعمال وهو فى الأحوال ، فى الظاهر يجرى وهو بالباطن يسرى ، يجاهد وهو يشاهد . كان على الطريق يبحث بين البنايات العشوائية المتناثرة فى الحقول الجانبية عن كوخه المثلث.

حين صرخ وأمسك رأسه وسقط ، كان يحدق فى النهر كأنه يصطاد . اتسع سطح الماء الأخضر بحجم مجال عينيه اللتين لم تطرفا ، وتوارت تدريجيا جزيرة الموز وتلاشى تماما صوت رجلين يقتتلان على قارب ، وبزغ ذلك العالم الناصع الملون . انبعث الضوء من كل مكان ، وتناهت أصوات بين

تسابيح وزقزقة من اتجاهات غير محددة ، كأنما تنبعث من داخله ، ولاحت فتاة من ضوء. قال : ما اسمك ؟ فلم ترد . قال : يا ليلى ، فمدت ذراعها ، أسلم يده لها دون أن يدرى . تبعها أسفل أغصان كثيفة تتعانق فى رقة ولا تصطدم، تتدرج أوراقها بين الأخضر والأصفر والأحمر والوردى ، حين يتسرب من خلالها ضوء أقرب لضوء الشمس بلا حرارة ، وترتع بينها أسماك طائرة كأنها فى حوض زجاجى كبير . ليس نهاراً وليس ليلاً ، وهو يغوص فى حَوَر عينين واسعتين ، وعنق حوله عقد من لؤلؤ ، وجسد ينبعث النور منه ، تنسدل عليه غلالات شفيفة . انفتح المدى أمامه وحوله ، فأسلم كفه فى راحتها وهى ترفل أمامه كقطعة من بللور . لم يشعر بقدميه تلمسان طريقا ، كأنما يسبح. تجاوزت به ثلاثة وثلاثين حجابا ، وبدا كأنه رأى سيد عبد العال وسط من مر بهم . توقف وناداه . كان منهمكا كعادته . يتمتم بدعوات مبهمة ، دون أن تتحرك شفتاه. يحدق بغبطة لموكبه . وحين انتوى من فرحته أن يسلم عليه ويقبله ، انفلتت يده منها فارتدت راحتها إلى صدرها ، فانفرط العقد وأصابته نقرة بِنْصَرِهِ فى رأسه؛ فصرخ وأمسك رأسه وسقط :

– آه يا رأسى !

ارتمى على حبات عقدها الذى انفرط ، فانطفأ كل شئ كما ينطفئ مصباح ، وفقد إلى الأبد فتاة الضوء . أفاق مجردا من غلالاته السندسية ، يحدق فى أرض الحجرة عن حبات عقد انفرط لتوه. كان رأسه مربوطا ما يزال من أثر نقرته ، والحجرة مزدحمة بإخوان يهنئونه على السلامة ، وصيادين يقبلان رأسه ويقسمان بالله أنهما لم يمساه ، حين تعاركا على القارب بعيدا عنه . همس شيخه فى أذنه: إنها كانت نقرة غيظ . لم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك وهو يراه مشرفا على الوصول ثم يفكر فيما عداه ، حتى لو كان شيخه. ثم دمعت عيناه واقترح أن يقيم حضرة .

عاونه المنشدون بصوتهم المنغم فى ضبط الإيقاع ، ألله .. ألله .. مطت

اللام مطا شديدا لتخرج الهاء مع نهاية الالتفات لليمين ، فتهادت الأجساد فى صفى البُسْط بطيئة ، ثم لم تلبث أن التأمت ، فتمايل كل صف كتلة واحدة ، فى اتجاه معاكس للصف المقابل ، ليصبح اتجاه الصفين – فيما لو انفردا – واحدا . انضبط الإيقاع وتسارع : ألله ، ألله ، فيما لم يزل الذاكرون فى الظلمة الخافتة بعيونهم المفتوحة بكامل وعيهم : تسارع أكثر. نقراته المحفزة والمتسارعة أدغمت اللامين فى واحدة ، ثم أسرعت فلم يعد بالإمكان سوى نطق الألف والهاء ، كأنهم يتأوهون ، ينحبس هواء الصدور خلف لسان المزمار ، ثم يخرج مكتوما دفعة واحدة . يغدو الذكر لهاثا وصعودا إلى الذرى فتتوارى نقراته فى الخلفية ، تغمض العيون ، ينبثق الضوء الداخلى ، كعود ثقاب يشتعل ، يضئ أفقا أوسع بكثير من مكان الحضرة ، تتحرر الأرواح من الأجساد ، تتبع الضوء ، تسبح فى فضاء وملكوت آخر ، وتخف الأجساد ، كل حسب مقامه ، فيغيبون عن الحضرة الأرضية ، يتحررون من سجن الجسد ، ويتناهى الذكر إليهم من بعيد كأنه لأناس خارج هذا الكون ، حتى تجذبهم يده بخيوط رفيعة إلى الحضرة الأرضية ، ليعود وعيهم تدريجيا بالمكان بإيقاعه الهادئ . أنشد قصيدته الفاصلة قبل الطبقة الثانية من الحضرة ، انتشوا بالسماع ، وتمايلت أجسادهم فى شجن القصائد النورانية : بعضهم يدمع ، وبعضهم ينهنه والآخر يعوى كمن قرصه ثعبان .

قلوب العارفين لها عيون   ترى ما لا يراه الناظرونا

قصيدته المفضلة قبل أن تبدأ أمتع الطبقات ، الثالثة ، حيث تتحرر فيها – تحديدا – الأرواح من أبدانها التى لم تكن قد استعادت ثقلها بعد ، وتكون الأرواح التى جالت فى العلا متحفزة للانطلاق مرة أخرى فى زمن أقل .

بدأ الإيقاع سريعا ومتلاحقا ، الأجساد ساخنة بفعل الطبقتين الفائتتين ، فبلغ الذرى من بلغ بسرعة ، وتجاوزت الأرواح الحجب وتخطت سماوات ،

واجتـازت مقامات وأحوالا ، فيما لاح – بعيدا وحميما – إيقاعه السريع ، المتلاحق ، كخلفية :

– أنا العرش. أنا الكرسى. أنا القلم ..

ظل يترجم ، كأنه يزعق ، ولم يكن إيقاعه – وهو يركز فى وجهه بنظراته – غير أصوات بعيدة غير مفهومة ، فيما كان الضوء اللامنتهى مبهرا بامتداد أفق بصره . أجلسه بسرعة ، وبدا متعجلا يتلو الفواتح . كان فى نشوته يتمايل ما يزال ، غير منتبه للقلق فى عيون الإخوان ، أو للدموع فى عينيه وهو يختتم ويسلم عليه هامسا :

– أمن اللوح المحفوظ كنت تقرأ ؟

هز رأسه ، فقال دامعا ، وهو يحتضنه طويلا :

– طاقية واحدة إذن لا تسع رأسين .

ولم يره بعد ذلك .

عند الكوخ المثلث ، كانت زوجته تشير فى هلع من بعيد فتوقف ، قالت إنه متعب جداً وإنه لم يعد يعرفها ، وحين دخلت عليه بالعلاج بكى وصرخ كطفل :

– لماذا تدخلين ؟ ألا تعرفين أن معى ضيوفاً ؟

سألها عمن معه ، فارتعدت شفتاها وقالت : لا أحد . بلا استئذان دخل عليه كعادته ، فوجده يحدق فى جوانب الكوخ كأنه يسلم بعجلة على ضيوف جالسين ويقبل يده الفارغة إلا من المسبحة : سيدى عبد القادر ، سيدى أحمد ، سيدى إبراهيم .

نادى عليه :

– يا عم الشيخ سيد .

كان قد انتهى ، فانفرد جسمه وصار بمواجهة الباب المفتوح تماما حين قال :

– لبيك .

وفاضت روحه قبل أن يعرف لماذا طلبه .

ورقة بيضاء إلا من سطر واحد وتوقيع ، وضعها على مكتب مدير المستشفى واستدار . لم ينتظر موافقته ، ولا انتبه لتلميحات الأطباء الجالسين فى مكتبه بأنه يفعل هذه الأيام أشياء بلا حسبان ، ولا أجابهم حين سألوه عن امتحان الأمس ، ولا التفت ليقول للمدير إن عنده الآن عادل الجندى حين زعق : ونوبتجية الاثنين ده ؟

لم يكن يخالجه هذه اللحظة سوى شعور مبهم ، وشوق قديم يجرفه بقوة إلى البعيد ، فيهبط الدرجات الحجرية . يغتسل بماء النهر ، ويصعد ليفترش قش الأرز ويتمدد ، تحت سماء واسعة . ليس أمامه سوى الماء وجزيرة الموز، ولا أصوات سوى لطيور وحفيف أشجار وخرير ماء . ليكتشف كم كان كحمار الرحى الذى كشف عن عينيه الغطاء ، فراعه أنه ظل يخوض دون أن يدرى طوال هذا الوقت حول العيادة والمستشفى والبيت ، فى دوائر من رمال ناعمة ومتحركة .

فتح عينيه كأنما بعد نوم كسول وطويل . تساءل : هل تزوج فعلا هذه السيدة التى تنام بجواره ، ومتى أنجب هذه البنت وهذين الولدين ، وركب هذه السيارة الجديدة التى أوشكت أن تحترق أول أمس بعد أن باع القديمة، هل حدث كل هذا فعلا ، أم أن الأمر كله محض حلم سينتهى بمجرد أن يفتح عينيه ؟ تأكد أن كل ما مر قد حدث بالفعل حين فاجأته فى الأدراج قسيمة زواج وشهادات ميلاد أطفال نائمين وعقود بيت وأوراق سيارة واقفة

بالأسفل. فى الطريق إلى المستشفى ، ود لو يجرى ويصرخ بأن ما حدث لم يكن هو الذى يريده ، غير أنه كان كطاعن فى السن ، ثقيل الخطا ، كلما رفع قدميه غاصتا أكثر .

كأنما يفيق من نوم طويل أو مخدر عام ، وضع الورقة أمام المدير وخرج متحررا من ثقله كطائر يقلع عن الأرض ويحلق . يعاين الأشياء فتنطبع فى ذاكرته بيضاء ونظيفة كما رآها أول مرة : شارع الشبان ، المركز القديم ، النفق ، الكورنيش بأشجار البنسيانا الكثيفة والبنك الأهلى لم يفتح أبوابه بعد. ثمة موسيقى تتبعه ونغم غامض، وإيقاع أشبه بركض الأحصنة أمام الحناطير فى الصباح . قبل أن ينحرف إلى شارع المديرية الذى يفصل مجلس المدينة عن محلج العطار ، تعالى الإيقاع الذى بدا أنه لِدُفّ ، وتجاوزه الدرويش المداح على سطح الكارو ، وانحرف إلى نفس الشارع . لم يكن يتوقع فى التفاتته البسيطة للخلف قبل أن ينحرف يسارا ليعبر الطريق المقابل – كما يفعل حين ينظر فى مرآة سيارته – أن يرى المداح الذى دأب على رؤيته يذرع شوارع المدينة من جنوبها إلى شمالها لعشرين عاما بالكارو بمثل هذا الوضوح . ولم يكن قد تبين – إلا بعدما تلاشت ملامحه فى شارع المديرية – أنه غير اتجاهه هذا اليوم . كان المداح يفرد ذراعيه ويتطوح فى وجد بجلبابه البنى على قميص أبيض ولاسة خضراء وشال ، دون أن يتجه بنظره إلى المارة .

على السلم المتسع راعه وشيش الصمت ، فتوقف عن الصعود. لا أنات لمرضى ولا صخب مرافقين يطالعه على بسطات السلم أو أمام الأبواب ، ولا دواب مربوطة بحديد شبابيك الدور الأرضى . لم ينتبه حتى لنصبة نجاح بائعة الطعمية التى وقفت فارغة اليوم بجوار البوابة . كأنها غير موجودة . صباح مختلف . فكر أن ينزل ويتأكد من واجهة العمارة . لكنه شغفا بالخفة التى اعترته ، واصل الصعود ، مستعيدا لحن الدرويش الذى يغنى لنفسه ، دون أن يرد بذهنه ما إذا كانت الورقة البيضاء إلا من سطر واحد على

مكتب المدير إجازة أو استقالة .

عند باب العيادة الذى كان مغلقا لم يجد المفاتيح . لأول مرة يرى الباب مغلقا . قبل أن يقرر النزول ، دفعه فانفتح . هل نسيته نازك مفتوحا من أمس ؟ ما لزوم المفاتيح إذن ؟ ابتسم فى نفسه وبدا خفيفا كمن حط عن كتفيه حملا كبيرا حين تصور أن تكون المفاتيح بهذا الثقل . أسند ظهره على الكرسى وفرد ذراعيه على امتدادهما وتنفس بعمق ومتعة كما لم يتنفس من قبل . كان يعلم أنه جاء إلى هنا ليتزود بشىء قبل أن يواصل رحلته القديمة إلى إنحناءة النهر ، أمام جزيرة فهمى الممتلئة بالموز ، أو جزيرة علما الممتلئة بأشجار الأرو والفاكهة .

كصورة وضعت توا فى إطار ، أطلت من مستطيل الباب امرأة . لم يشعر بخطواتها على السلم ، ولا لهاثها . بملاءة سمراء ووجه أبيض وعينين محدقتين . كأنما تنتظر منذ وقت بعيد . لملم ذراعيه المفرودتين تلقائيا واعتدل خلف مكتبه ، وتوارت مشاعر الخفة :

– أليس اليوم الاثنين ؟

– قلت لعلك تكون موجودا .

تعاقبت على المستشفى العام خمس إدارات مختلفة ، توافد خلالها أطباء وتقاعد أطباء ونقل آخرون ، وظلت نوبتجياته ثابتة أيام الاثنين . فاستمرت عيادته من ثم – دون أن يقصد – كأيام أندراوز ، مغلقة أيام الاثنين . لم يأت اليوم ليعمل ، لكن الأمور بدت أنها تسير على غير ما يرغب . استندت على الباب ، فبدا الفستان الجينز والبلوزة البيضاء متسعين عليها ، ونضحت من وجهها فى آن ملامح الطفولة والنضج . لم تغادر وجهه النظرة المتسائلة :

– لكن اليوم هو الاثنين .

اختفت استدارة بطنها ، فتلاشت ملامح الألم من وجهها ، وحلت محلها ملامح الطفولة المرتبكة مرة أخرى :

- خالتى نعمات قالت إنك هنا .

- وأين هى نعمات ؟

أشارت إلى أسفل ، فاندفع متشككاً نحو الشرفة المغلقة من زمن ، أزاح الأتربة . يعرف أن نعمات لم تغادر مكانها بجوار سور المستشفى منذ زمن طويل . البندر كما هو ، عمر أفندى ، الكورنيش ، شارع البحر ، المسجد القديم ، مجلس المدينة ، مركز الإسعاف الرئيسى ، محلات الكنافة والبقالة وقطع غيار البوتاجاز ، عمر بن الخطاب ، محالج العطار ، والسيارات والحناطير .

وجدها . كانت تفصل بينها وبين أرجل المزدحمين والفضوليين من المارة بقطع من الطوب والحجارة ، وكما اعتادت لأكثر من عشرين عاما ، كانت تمارس حياتها الكاملة داخل هذه الحدود . تأكل وتنام وتستحم فى العراء . لا تعنيها الدهشة في عيون الفضوليين ، ولا إبلاغ إدارات المستشفى الجديدة لشرطة النجدة التى تأخذها فتغيب فترة داخل المصحة النفسية المقابلة ثم تعود فجأة إلى نفس المكان، بيديها أكياس الحمص وقطع الحلوى البيضاء كالجبن كأنها لم تكن بمصحة نفسية ، تستحدث أشياءها التى بعثرها العساكر ، فتجمع فى دأب قطع الشراميط وفرد الأحذية إلى الأطباق القديمة ، وتشعل النار فى أوراق وكراتين وأكياس بلاستيك دون أن تعنى بأحد أو تكلم أحدا . صباح مختلف . نفس الجلسة المتقوقعة ، ونفس الحدود الوهمية على رصيف المستشفي الأميرى ، نقلتها نعمات إذن إلى هنا دون أن يأخذ باله .

أربكته الدموع التى ترقرقت فى صمت ، فخالجه شعور بالذنب وهو يغلق الشرفة ، لأنه ارتاب فى قولها دون مبرر . لم يميز إن كانت الدموع لتقلص البطن ، أم لفتور استقباله لها . أصبح من غير الملائم - وهو يسعى نحو رحلة مبهمة - أن يتحمل هذا الوزر ، فقرر أن يفحصها ، ربما وجد الرأس موشكة على الخروج ، ولن يكون عليه حينئذ سوى أن يجذب المولود ، ليحل

الامتنان محل تلك الدموع ، فتقول : مش عارفة كنت هاعمل إيه من غيرك ؟ ويشعر لحظتها بالأهمية الحقيقية لوجوده في هذه اللحظة بالذات ، وربما ظلت سعادته حتى يؤدى أشياء بسيطة بعد انتهاء الولادة : ربط السرة ، تلبيس المولود ، المساعدة فى إنزالها عن ترابيزة الولادة إلى السرير ، ومتابعته لعلامات الراحة تغمر الوجه بعد إجهاد الولادة ، ومطاوعة الشعر المبلول بالعرق لتمشيط الأصابع التلقائي وانسداله للخلف .

تظل هذه الأشياء الصغيرة عالقة برأسه طويلا ، أكثر من لحظات الولادة نفسها ، إذ يغدو كل ما فى الكون - فى هذه اللحظات النادرة - طيعا وراضيا ورقيقا ، وتطل تلقائيا أمارات التقدير من العيون وتختلج في نبرات الكلام ، وقد تمتد لسنوات دون أن تفتر كلما دخل البوابة وصعد هذا السلم إلى عيادته ، إذ ترد نجاح بائعة الطعمية على إيماءته بحماس ، كأن ما فعله لها كان بالأمس ، وهو ينزلها عن سرير الولادة ، انقضت على كفيه ، وتهدج صوتها وهى تقبلهما ، وكلما حاول نزع كفيه ، قالت بهوس وهى تبكى :

- لن يكفينى حتى لو بست رجلك .

لم تكن تتوقع أن تعيش لترى هيثم معلقا من ساقيه فى الهواء ، وقد صرخ صرخته الأولى وحبله السرى مدلى بالجفت . كانت تعانى فى حمله من تسمم بالغدة الدرقية وهبوط بالقلب وتورم الساقين وكرشة النفس ، حتى أنها حلَّفَت زوجها وعمرو على المصحف فيما لو ماتت ألا يتعرضا له ، لأنها تشعر منذ بداية هذا الحمل - الذى جاء متأخرا عن عمرو ثمانية عشر عاما - أنها ميتة بالفعل . كمن نجا بأعجوبة من حكم بالإعدام كان يشعر بصدى هذه النجاة فى حماسها وهى ترد السلام عليه كلما دخل من بوابة أندراوز .

نزع قفاز الفحص ممتعضا وعاد إلى مكتبه حين وجد عنق الرحم مغلقا ورأس الجنين الآتى عالية . تبين أنها مازالت فى أولى مراحل الولادة . تيقن الآن أنها كانت دموع الخوف وفتور الاستقبال تلك التى فى عينيها ، فقد مسحتها واستراحت ملامحها تماما حتى قبل أن تسأله عن نتيجة الفحص ،

وبدت مثل طفل كف للتو عن البكاء وسيقبل عما قليل على النوم .

تنقبض أمعاؤه وتنتابه فجأة الرغبة فى دخول الحمام ، وترد فى خاطره كل الهواجس والاحتمالات ، دون أن يلحظ أحد من الحضور قلقه ، أو تغيب عن ملامحه الثقة التى يتحلى بها فى مثل هذه المواقف ، وسيكون من المتعذر أن يتبين أحد - من خلال ما يتفوه به من عبارات وسطية لاتحمل مدلولا محددا - أنه فى هذه اللحظة يتغاضى عن نهلة وعزيزة وأم هاشم اللاتى حضرن أمامه ، متكئات على سرير الولادة ، يخايلنه ، ويتعبن أعصابه ، يذكرنه بأسوأ المضاعفات التى تأتى من حيث لا يتوقع حتى فى ولادة عادية جدا .

انقبضت أمعاؤه ولم يسترح حتى فى الحمام . كبت هواجسه التى تجرفه بعيدا ، نحو مراكز الشرطة غالبا ، وتحقيقات النيابة ثم تلويث السمعة ، كى لا تطفو على سطحه الهادىء ووجهه المطمئن ، متأهباً بذات السماحة والرحابة للإجابة عن أسئلة قلقة للحالة أو أحد مرافقيها :

- فاضل قد إيه ؟

- ربنا يسهل .

وإن تكرر السؤال ملحا ومستوضحا :

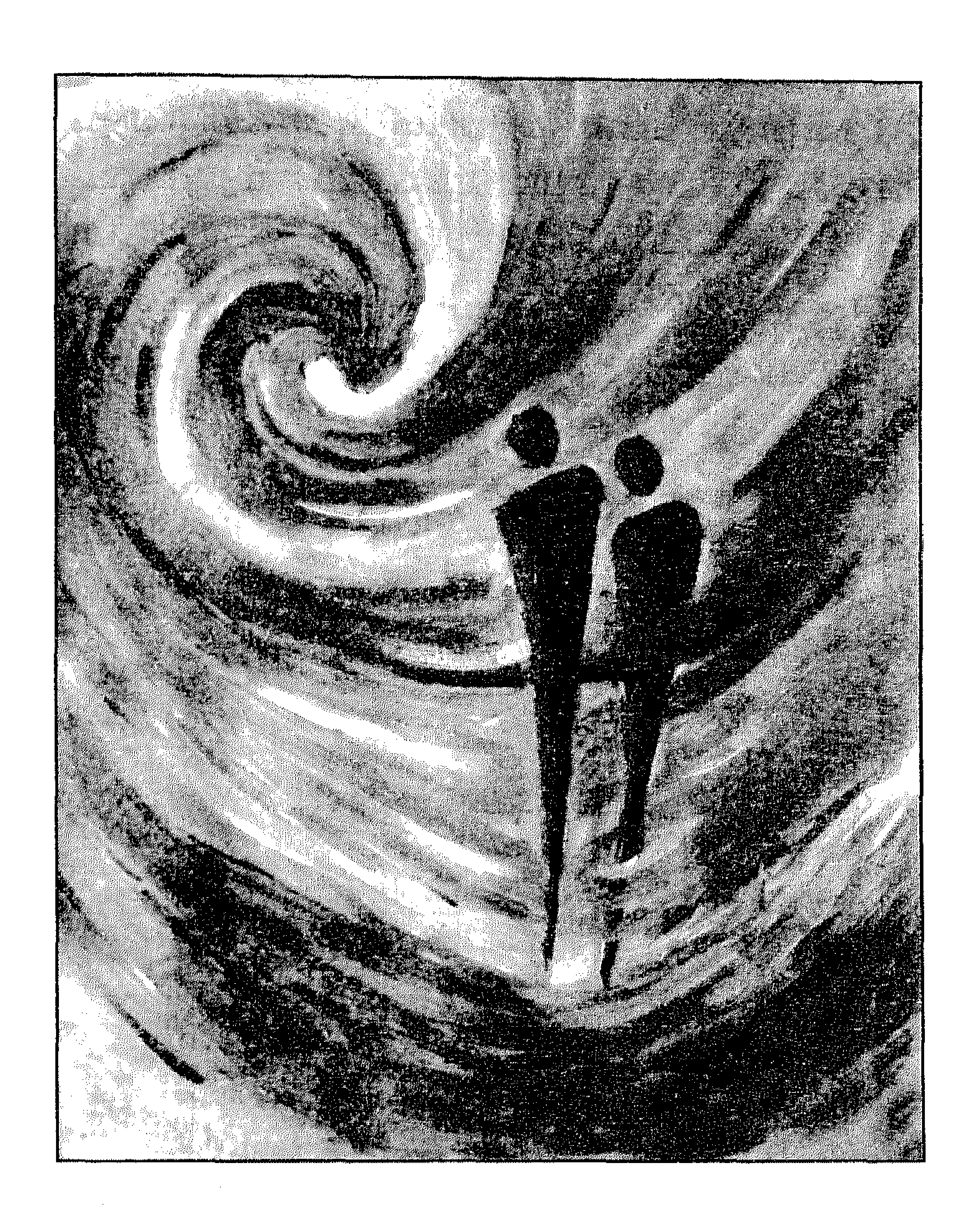
- يعنى فاضل كتير ؟

يبتسم لعبثية أسئلتهم المتوالية ، فلا يمكن لعاقل أن يرد عليها سوى هذا الرد الغامض الواضح ، إذ لا يمكنهم الاعتراض عليه .

- شوية .. ما تقلقوش .

آليات لغوية وحوارية استحدثها ، ربما تقيه فى مثل هذه المآزق من المشيب المبكر والشيخوخة ، بعد أن جرب التحديد بدقة . نصف ساعة . ربع ساعة . تنتقل النظرات بين الساعات فى الرسوغ ونقاط المحلول البطيئة ، ثم ترتد إليه - قبلما يمر الوقت الذى حدده دون أن تلد - متسائلة ومتهمة ومتشككة ، تزيد انفعاله وقلقه وتضيف إلى كاهله عبء تأخر الولادة . آليات

لغوية استحدثها لمواجهة أسئلة عبثية ومتكررة ، فيما تظل أمعاؤه كما هى خلف هدوئه الظاهرى متقلصة . هل كان لابد أن يمر وقت طويل كى يعتاد هذا الهدوء الظاهرى ، حتى أمام النار التى فاجأته من عيون البوتاجاز الذى صار كتلة من نار ، فيتراجع قليلا للخلف دون أن يصرخ رغم لسع النار المفاجىء لوجهه ويديه ، ويتوجه إلى الأنبوبة فيغلق محبسها بسرعة ، هكذا دون أن تشعر الحالة الجالسة فى حجرة المكتب المقابلة ، رغم أنه لم يكن قريبا من الموت مثلما كان وهو يعد الشاى فى هذه اللحظة .



استحالت العيادة إلى زنزانة تضمهما ، هو عند باب الحمام وهى جالسة هناك . صار مجرد وجودها فى العيادة عبئا ثقيلا ، يحول دون استجماعه لهذه الحالة الغامضة التى يحياها ، أو القبض على ملامحها تحديدا . برفق كان يحاول إقناعها حتى لاتشعر أنه يدفعها إلى مغادرة العيادة :

– تروحين الآن ثم تجيئين حين يزيد الطلق ؟

– أليس هذا طلقا ؟

– طلق .. لكن الوقت قد يطول .. ثم إنك جئت مبكرة .

– مبكرة جدا ؟؟

– لا .. قليلا .

– ألا يمكن أن يزيد الطلق وألد قبل ذلك؟

– ممكن طبعا .

– طيب .. هل أذهب ؟

أراد أن يحاصرها فحاصرته . لو قال نعم سيعاوده الشعور بالذنب . فضل ألا يرد. يختار المريض طبيبه ، وليس العكس . سكت لأن المريض هو الفاعل دائما والطبيب هو الطرف السلبى. سكت لأنه لمح من استفساراتها أنها اختارته ، ولن يكون بوسعه سوى أن يدعها تستريح فى حجرة الولادة ، ولا يلح عليها بالذهاب حتى ولو استحالت العيادة إلى زنزانة حقيقية . كان يريد أن تذهب وحدها كما جاءت وحدها ، لكنها حاصرته ، حتى أصبح الجواب بلا يساوى الجواب بنعم .

استحالت العيادة إلى زنزانة حقيقية ، واعتملت فى نفسه هواجس أخرى يعرفها حول ما قد يواجهه من طوارىء وكيف يتعامل معها . كى يبعدها بسط الأمر لنفسه ، فالمكان ليس فى النهاية أكثر من غرفة ولادة ، يتوفر بها المعتاد من آلات وأدوية ضرورية ، ولا ينبغى أن تنتابه هذه الهواجس. مع دخول كل حالة لعيادته ، لمجرد أن إحداهن قد تشذ عن القاعدة فتتطلب حاجات معينة ، أو تسلك فى ولادتها سلوكا غير متوقع . وكما قد يحتاج أثناء ولادة طبيعية وبشكل مباغت لشىء نادر جدا ، لا يسعفه الوقت حتى لمجرد تذكره أو كتابته ، ولا من أين يمكن الإتيان به ، يمكن ألا يحتاج لهذا الشىء النادر لسنوات فيما لو وفره، وربما طوال عمره المهنى. تبقى العوامل الأخرى كانقطاع الكهرباء ، أو تعطل جهاز الشفط ، أو انقطاع حرارة التليفون وقتما يطلب طبيب التخدير ، والمطر المفاجىء حين يعوق نقل الحالة فيما لو حدثت مضاعفات شديدة ، ومداخلات ومقاطعات رواد العيادة الآخرين وهى – على ندرتها – يمكن تقبلها كمعوقات خارجية . أما توقيت الولادات ، وخوفه من مضاعفات الفجر ، حين يقرر الانتقال للمستشفى ، لنوم كاتب الاستقبال وعامل المصعد وممرضات العمليات والأطباء النوبتجيين، وبنك الدم ، فقد اعتاد على أن لا يزول هذا التوتر إلا بعد أن تلد الحالة ، وتخرج على قدميها . وقد جلس لذلك خلف مكتبه ، وأراح رأسه للخلف، وفرد ذراعيه على امتدادهما ، وقرر نهائيا الشروع فى مهمته .

– ... ؟

– أروى على محمود .

– من أين يا أروى ؟

طار النوم من عيون الطفلة التى كانت ستخلد إليه عما قليل ، وابتسمت فبانت غمازتا وجهها لأول مرة:

– ألا يبدو من ملامحى؟

ثمة عذوبة وصفاء ، وملامح بريئة تبعث على الارتياح جعلتها تبدو كأميرة

خرجت توا من الحواديت ، فاختلطت الأمور عليه لأول مرة ، وبدا أنه ليس فى حالة تسمح بالتخمين الصحيح :

– لست غريبة عموما ..

أومأت متوسلة أن يكمل ، لكنه قال :

– عاشت الأسامى يا أروى .

لم تعد تحبها ، هذه العبارة التى يبتر بعدها الحديث رغم ما كان يعد به. تميمة للخلود فى ظاهرها ، وتكريس للغياب والنسيان فى الباطن . تسمعها فتنحدر وحدها الدموع بلا صوت ، وتعلم أنها سترتطم بعدها بجدار مصمت.

فى الشارع التجارى، يتحول شراؤها لأى شىء إلى صداقة . لاتشترى إلا من عجوز ، مقيم غير عابر . تتمادى فلا تقدم نفسها . تنتظر تخمينه التلقائى . أنا شفتك قبل كده . يهيأ لى أننى أعرفك . تومىء مشجعة ومبتسمة . اللهم صلِّ على سيدنا محمد . لكن أين ؟ من عائلة فلان ؟ ياربى! لا .. إنها عائلة علان فى بلد كذا . تسجل فى ذهنها أسماء عائلات وأسماء بلاد . تتقصى بطرقها الخاصة والبدائية والدءوبة ، لكنها ترتطم بجدار مصمت . ينهكها البحث ، لكنها لا تكف حتى تعيد المدينة الواسعة إلى سيرتها الأولى . مجرد قرية صغيرة ، وضيقة بشكل يتمكن معه أى بائع عجوز أن يتذكر عائلاتها كاملة ، وقتما كان هذا الشارع التجارى مجرد سويقة تربط داير الناحية من النيل بشريط القطار ، حتى قبل أن يتحول فى بداية القرن إلى شارع مختص بالأقمشة والأحذية والخردوات والأدوات المنزلية، وتنزاح سويقة الطيور واللحوم والخضار إلى شارع جانبى يتفرع منه ، ثم يلتقى به مرة أخرى عند مثلث الصاغة والمنجدين وتجار القطن . تراها أروى كقرية متعبة ، تريح رأسها من الجنوب على الرياح التوفيقى بكوبريين متلاصقين أحدهما للمشاة والآخر للقطار ، مات عليه على محمود.. يمر فرع دمياط بجانبها الأيسر، ومن جانبها الأيمن تمتد الحقول خلف

السجن العمومى ومحالج بنك مصر ومعاصر الزيوت والصابون ومبخرة البرتقال . ثم ينثنى جسدها المتعب جهة الغرب ممددا ساقيه - كى لايسقط - كجسرين متباعدين على النيل ، أيمنهما للسيارات والأيسر للقطار الفرنساوى ، ذلك الذى يشق الجسد المتعب طولياً فى دقيقة وعشرين ثانية ، ولا يتوقف بها حتى بعد أن التحمت بها المنشية وعزبة القرود ومنشأة عزيز وبدوى وأتريب وكفر السرايا ، وصارت مركزا لاثنين وأربعين قرية حولها ، ثم عاصمة لمحافظة فيما بعد .

لم يكن فى وضع يسمح بالتخمين ، لكنه كاد يجزم أنه رآها من قبل ، هذا الوجه تحديدا . ونازك التى تدخل فى الموضوع بشكل آلى ، ولا يهمها سوى الاسم واستلام ثمن الكشف ، كان بإمكانها لو كانت موجودة أن تزيل له هذا الغموض واللبس . لم يكن فى حالة تسمح بالتخمين ، لأنه فى اليوم الثالث فقط ، عندما همّ بإغلاق حقيبته ، ارتاب فى أنه يفحص نفس المريض. لم تكن به أى علامات مرضية تذكر . أحس قبل أن ينطق التشخيص بأن الكلام الذى يخرج من فمه سبق أن قاله مرتين . تردد لحظة وحدق فى وجوه المحيطين . لم يجد أثرا لأحد رآه من قبل ، فقال إن مريضهم سليم وأكمل إغلاق حقيبته وخرج .

فى اليوم الرابع ، بعد مسيرة نصف ساعة ، تأكد الشك . قال المريض : سأموت، فقال إنه سليم وخرج متأففا . على طريق النهر سأله مرافقه عن حقيقة مرضه. فهز رأسه وقال : لاشىء . تمتم مرافقه : لكنه سيموت ! كرر قوله مرة أخرى : لاشىء به . أشار مرافقه إلى حقل فى الساحل زرع بالمكرونة وقال وهو يمصمص شفتيه :

- هذا حقله !

فقال لمرافقه : ما اسمك ؟

- خدامك إمام الفنجرى .

- يا عم إمام لا تستدعونى مرة أخرى .

فى اليوم الخامس، طلبه صبى خجول للكشف على مريض ، فقال أول ما سأل : أين ؟ قال الصبى : على بعد دقيقتين من هنا . فنزل معه من شوارع ضيقة إلى حارات صغيرة يخيل إليه أنها مسدودة ، لكنه ما إن يقترب خلف الصبى الذى يجتاز الباب الأخير فى الحارة ، يجد نفسه فى حارة أخرى . كان يلقى السلام على الجالسين على الأبواب والمستريحين على الأعتاب والذين يأكلون ، فيما بدا أن مرورهما هكذا لم يكن غريبا ، فقد كان الجالسون يردون السلام والمضطجعون يعتدلون . وكأنهم يعرفون المهمة التى سيذهب إليها ، وكانوا يرددون كثيرا : ألف سلامة . ربنا يشفى كل مريض.

بعد دقيقتين تماما من العيادة ، وجد نفسه أمام نفس المريض . تلفت من حوله ليرى إن كان ثمة بيت بخمسة مداخل مختلفة ، فلم ير من بين الواقفين حوله أثرا لمن استدعوه فى المرات السابقة . وحده كان الصبى الذى يرفع الغطاء عن المريض ويتنقل ببصره بين حقيبته ووجه المريض ، ويوشك على البكاء منتظرا التشخيص . لم يكد يؤكد بنفس الملل وهو يغلق حقيبته أنه سليم، حتى شهق المريض شهقة أخيرة تزامنت تماما مع إمساك الصبى لحلق الثوب وشقه بصرخة طويلة وملتاعة .. لم يحرجه ذلك الحدس الكامن بالخطر فى الصرخة ، أو موت المريض غير المتوقع ، بقدر ما أحرجه اكتشافه من الثوب المشقوق والنهدين الصغيرين أن الذى استدعاه صبية لا صبى . خرج محرجا ، يكمل غلق حقيبته فى الشارع ، لايستطيع التحديق فى عيون المضطجعين والجالسين على الأبواب ينظرون إليه بتسليم ، كأنهم كانوا يعرفون . انتبه إلى كومة من نوى البلح تنطلق من داخل بيت ، تفاداها بالكاد لكنه سمع صوتا يقول : ألم أقل إنه سيموت ؟ التفت فالتقت عيناه بإمام الفنجرى متكئا داخل عتبة بابه وبيده طبق فارغ .

لا يدرى حتى هذه اللحظة إن كان قد كشف بالفعل على رجل بهذا الشكل ، فى دار بخمسة مداخل تؤدى إليها خمسة طرق مختلفة ، أم أن

الأمر مجرد حلم أو حكاية من حكايات أندراوز . ربما نسى الموضوع تماما، لكنه لم ينس ذلك الإحساس بالحرج وهو عائد إلى العيادة ، ولا مشهد الصبية الملتاعة وهى تشق الثوب ، والتى يوشك أن يجزم أن ملامحها تنطبق على الجالسة أمامه كطفل طار النوم عن عينيه :

– هل جئت هذه العيادة من قبل ؟

هزت رأسها .

كانت أروى تشعر منذ اتكأت بيديها على إطار الباب قبل أن تدخل ، كأنها جاءت هنا، وأن الحجرة التى فى مواجهة الصالة وفى مواجهة الداخل من الباب هى حجرة الكشف ، ولابد أن يكون هنا باب يفصل غرفة الولادة عنها ، وتلك الغرفة لابد أنها تطل على خلاء جانبى بشباك فقط ، غير بابها الذى من الصالة ، ولغرفة المكتب شرفة تطل على عمر أفندى والبندر والشارع، وهذا المنور الكبير الذى تفتح عليه الصالة بشباك زجاجى خشب فقط تطل عليه حجرة المطبخ والحمام . كأنها دخلت هنا من قبل ، فلماذا يقول لها عاشت الأسامى وينقطع الحديث هكذا ؟ وهل كان بوسع أندراوز أن يجيبها عن شىء مما يدور فى رأسها لو سألته قبل ثلاثة وعشرين عاما ، حيث كان الأمل يراودها فى كل عجوز تقابله وكل شىء تبتاعه أن تصل إلى شىء ، وهل تراها تجد الدفاتر القديمة والمسجل فيها أسماء المرضى لخمسين عاما مضت وتبحث فيها عن شىء . أو لم يتح لطبيب عجوز وأريب مثل أندراوز أن يعرف جيدا عائلات هذه المدينة الصغيرة التى عمل بها خمسين عاما متواصلة ، مسافرا إليها بشكل يومى عدا الاثنين من القاهرة ونازلا من القطار فى موعده ، حيث ينتظره حنطور حسين الدولة ومن بعده ولده عبدالوهاب ثم أخيرا حفيده حسين عبدالوهاب حسين الدولة ليوصله إلى العيادة ، فيعرف كل أهل المدينة النحيفة والقرى المجاورة بوصول أندراوز الذى لايكف عن التساؤل كلما أطل من نافذة قطار شبه خال يصل المحطة فى العاشرة وعشر دقائق يوميا : كيف يتواصل أهل كل هذه القرى المتناثرة

بلا منطق وسط هذه الغيطان الفسيحة ككتل صغيرة من دور طينية لا تكاد تبين من بين الأشجار لولا مآذنها المتواضعة ، بلا طرق تربطها سوى مدقات ملتوية كثعابين تقترب وتبتعد بلا منطق أيضا وإن كانت تلتقى فى نهاياتها لابد بطريق عمومى مترب يحاذى الطريق الزراعى السريع وشريط القطار حتى المدينة حيث عيادته ، حتى صار بإمكانه أن يرد كل مريض يكشف عنده إلى أصله حيث يتذكر كل العواجيز الذين عولجوا عنده، ويمكنه حينئذ أن يحكى للتسرية عن المريض مئات الحكايات عن أناس من عائلته يقطنون قريته ، ولا يعدم غالبا أن يجد ما يربط بين مرضاه من اثنتين وأربعين قرية حين تتشابه الأسماء والألقاب .

لخمسين عاما سيقف القطار شبه الخالى لمدة دقيقة واحدة كى يتمكن أندراوز من النزول فى المحطة . وسيقف القطار فى اليوم التالى ولا ينزل أندراوز ، وسينزله فى نفس الموعد من السيارة السوداء أقاربه – كما أوصى – فى مقبرة تتسع لفرد واحد بهذه المدينة . مقبرة تطل بفوهة وصليب من ناحية على مقابر الأقباط ومن الأخرى على مدافن المسلمين ، ليشارك فى وداعه أولئك الذين كان يصدر تعليماته المشددة لموظفى وحدة الملاريا والأوبئة بمعاطفهم البيضاء بمعاملتهم برفق وإنسانية ، وأن يحددوا بدقة أماكن الرش على الرأس من الخلف وفى ياقات الجلاليب ، غير أنهم كانوا يوجهون البدارات إلى وجوههم كأنهم يطلقون عليهم النار ويديرون أوجههم للخلف حتى لاترتد إليهم رائحة مركبات الفوسفور العضوية أو الملاثيون ، وكان أندراوز يصرخ – أيام كان طبيب المركز – بأنهم آدميون ، وعلى ممرضيه أن يوجهوا بحرص بخاخات البودرة نحو أقفيتهم فقط بالقدر الذى يكفى لقتل الحشرات والقمل والجرب المعدى ، غير أن ممرضى الملاريا كانوا يرشونها كيفما اتفق بهذه الطريقة العدائية والمتعالية فيبدو أهل المدينة والريفيون البؤساء مغبرين كأنهم خارجون من طاحونة ، فيما يفزع الأطفال الصغار وعيال المدارس ، أو يسقطون من الإعياء إثر زيادة الجرعة أو

دخولها للجسم من فتحات أخرى .

الذين يلبسون الآن هدوما نظيفة وشعورهم مسرحة ، هم الذين تكاتفوا قبل ثلاثة وعشرين عاما ليدفنوه بأنفسهم ، وجلسوا خلف مقبرته من جهة مقابر المسلمين ليقرأوا القرآن ، وتطوعوا فيما بعد بوضع لافتة من رخام وكتبوا عليها : قبر المرحوم أندراوز الحكيم قدس الله روحه ، وتطوع آخرون بزراعة شجرة بنسيانا أمام المقبرة تظللها وما حولها الآن كخيمة ، وهم أنفسهم الذين اختزلوا مدافن الأقباط كلها فيما بعد إلى ترب أندراوز كلما مروا بها أو جاءت سيرته عرضا ويضيفون : الله يقدس روحه .

تنهدت أروى التى كانت تشعر أنها من هنا يمكن أن تعثر على بداية الخيط ، رغم أنها لم تكن تبلغ من العمر آنذاك سوى سنوات قليلة ، فدفاتر أندراوز أقدم بعشرات السنين من المستشفى الأميرى ، والطبيب الذى فى عيادة أندراوز لابد أنه يمتلك بعضا من صفاته وعاداته . هكذا كانت تعتقد . لكنه قال : عاشت الأسامى ، فودت لو تصرخ بأنها كانت هنا من قبل .

– هل أنت خائفة ؟

– ......

– زوجة من يا أروى ؟

– راشد عبدالمجيد .

لم تهتز ملامحه . تأكدت أنه لايعرفه أيضا .

لو كان أندراوز موجودا لخبط المكتب بيده وصرخ :

آه راشد ! الولد الصغير الذى ظل يمسك ذيل جلباب أبيه عبدالمجيد أينما يذهب ، وكان عبدالمجيد يحبه ولا ينقصه سوى أن يطلع له البز ويرضعه . متى كبر هذا الود ومتى تزوج ؟ والله عجزت وراحت عليك يا أندراوز !

راشد الذى طلب لحمة مرة، فلف عبدالمجيد المدينة كلها ولم يجد ، ولما وجده يبكى لم يتحمل ، فذهب إلى أندراوز ورأسه وألف سيف أن يقطع

قطعة من كتفه للولد الذى يبكى ولا يوجد بهذه المدينة الفقر جزار واحد عنده لحمة .

تعلل أندراوز بأنه لايوجد لديه بنج فقال :

لايهم .. سأتحمل !

راشد هو الذى طلعت به من الدنيا ياحكيم باشا وأمه ميتة وأنت تعرف .

ولم يخرج عبدالمجيد إلا بعد أن أعطاه أندراوز حقنة البنج وطلب حسين الدولة بالحنطور ليذهب بهذا المجنون إلى داره .

هو بعينه راشد الذى لم ينه دراسة العلوم السياسية ، تلك التى صمم من أجلها أن يترك الآداب والتجارة والتربية .

حسَّن مجموعه فى الثانوية العامة لثلاث سنوات متتالية ، حتى صار تصميمه مثار إعجاب الكثيرين ، لولا أنه صمم على ألا يستكمل العلوم السياسية أيضا .

فتحول إعجابهم إلى ريبة ، واسترجعوا فقط إصرار أبيه عبدالمجيد كل عام على استنبات المكرونة فى حقله .

هو بعينه راشد الذى كان يعرف نقطة ضعفها .

– أنت حساسة أزيد من اللازم . اذكرى لى أحداً مات لأنه لم يعرف نسبه .

هل سأل أحد: ابن من كان الشاطر حسن ، أو ابنة من كانت ست الحسن ؟

نقطة ضعفك أنك تشعرين دائما بأن خلفك تاريخ طويل وحقيقى لكنه مفقود .

– عاشت الأسامى يا أروى !

لو كان أندراوز موجودا لما نسى شيئا .

كمن يطارد أيائل شاردة ، كانت عيونه زائغة .

تراوغه روائح قديمة ، غامضة ومتداخلة ، وتشتته ألوان مترامية ، تتعانق

وتسيل ، وتتلاشى نقرات دف بعيد ، وترانيم كأنها تسابيح ، انتبه إلى صدرها وأشار :

– أكان هنا عقد ؟

– يااه .. وانفرط منذ زمن !

اختلطت الأمور أكثر ، واقترب صوت الدرويش المداح كأنه عاد كما كان لحظة صعوده السلم ، وبدا طويلا فى جلبابه الأزرق ، وتذكر أنه كان متزنا رغم سرعة الكارو وانعطاف الصحان المفاجىء من شارع الكورنيش إلى شارع المديرية ، وبدا كأنه يغنى لنفسه وتأكد تماما أنه لم يكن ينظر بإتجاه أحد ، وأنه ظل كعادته يمرق كالسهم من جنوب المدينة حيث كوبرى الرياح التوفيقى وشارع الجيش ثم النفق ثم شارع سعد زغلول إلى شمالها حيث الكوبرى على النيل ، دون أن يعرف على مدى عشرين سنة أين يذهب ومتى يعود .

صار صوت الدرويش قريبا لولا أنه يعرف أنه يمرق كالسهم ولايعود فى نفس اليوم. خمن! ياللصعوبة، كأن عليه أن يفصل إبرة عن كومة قش. جذب راحتها. كشف ذراعها كى يقيس الضغط. خمن.

عادت أنوار تتلألأ، وبدت الذراع الصغيرة شاهقة البياض، كأنها تضىء.

أكمل الكشف ، هذا الصدر النافر بحلمتيه البنيتين، وهذه الرقبة ، بالغ فى الصعود بالفستان الجينز لأعلى ، هذا الصدر كأن شيئا ينقصه ، قال مؤكدا :

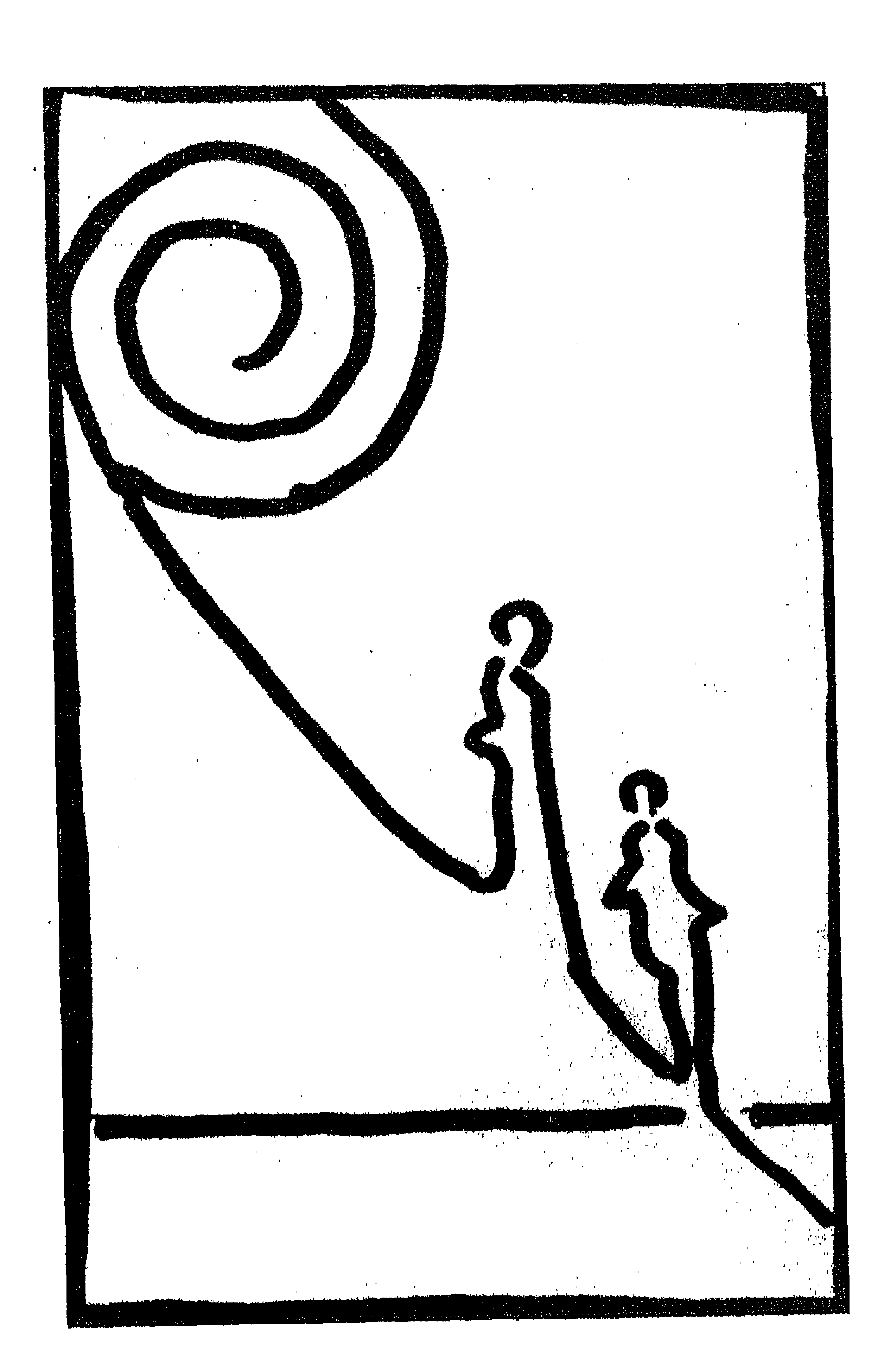
– عقد من لؤلؤ ؟

مندهشة أو مأت برأسها مرة أخرى ، فارتعد بدنه .

تداخلت المشاهد كأثواب من أقمشة ملونة مفرودة ومعقودة ببعضها كأمعاء أرنب. لجأ إلى تاريخها المرضى.استعان بأسئلة ظاهرها تسجيل بيانات الحالة ، وباطنها هدف فى رأسه. الاسم والسن والعنوان ، العادات الخاصة ، تاريخ آخر دورة ، مرات الولادة والإجهاض السابقة إن وجد ،

نوعها، تاريخ الزواج ، تاريخ مرضى سابق ، عائلى ، مرضى ، جراحى ، تقرير طبى مفصل . بدربة كان يمط فيما يرغبه ، ويختصر فيما لايهمه . لكنه لم يرو ظمأه ، أو حتى يوصله لخيط قوى يجذب ذاكرته بعنف . أغلق جهاز الضغط متحيرا :

- ألم نلتق من قبل ؟
- التقينا .



حين أيقظه أبوه لينتقل من مكانه إلى مكان نومه المعتاد ، لم يكن يبتسم له ، إنما كان يبتسم فى معطفه الأبيض للمرضى فى عيادة أندراوز . كان يفحصهم بسماعة فى أذنه ، وكانوا كثيرين ، إلا أنهم كانوا يميلون أولا على نعمات الملط ، يسألونها عن أندراوز ، قبل أن يمثلوا مترددين بين يدى طفل صغير ذى معطف أبيض . وما إن ينتهى من فحصهم حتى تتراقص أجسادهم من الفرح ويلوحون له بأيديهم التى كانت معتلة فى الهواء ، فيبتسم لهم .

دفعه أبوه فى كتفه متهكما: تحلم ومازلنا فى أول الليل؟ فى اليوم التالى مرضت أمه وذهب بها إلى أندراوز فلم يجده . وحين عاد من جنازة أندراوز، ربت كتفه ، وقال لزوجته إن ولدها غريب ، تجيئه الأحلام فى الهزيع الأول من الليل ، تنفصل روحه عن جسده النائم . كان يضع أذنه على صدره متسمعا دقات قلبه وحركة تنفسه ، فلا يظفر بشىء .

تنفصل روحه تماما . تسبح فى الفضاء . تلتقى أثناء سباحتها مع أرواح لآخرين موتى وأحياء . تسبح وتلف وحين تعود إلى جسده الراقد كميت ، تعود بانطباعات غريبة ، غير مرتبة حين رويها وغير مفهومة غالبا ، ولا يبقى منها سوى إشارات يشعر بها أبوه ، فحظر لذلك أن يوقظه أحد بعنف ، أو فجأة أثناء الحلم حتى لاتضل الروح أثناء عودتها ، وتولى إيقاظه بهدوء وعلى مراحل ، وكان أكثر مايخشاه أن يموت نتيجة استيقاظ مفاجىء أثناء الحلم، على النقيض منه هو الذى ينام على وضوء فتأتيه شخصيات الحلم بهيئة

ملائكة أو أشباح تدخل من ثقب الباب وتقف على حافة السرير حتى تسلمه الرسالة ، ثم تعود ببساطة من نفس الثقب ، ليصحو متذكرا الرسالة كلها بالتفصيل .

كحلم فى الهزيع الأول من الليل ، لم يصل إلى تحديد فعلى أين رآها . حتى حكاية المريض والبيت ذى المداخل الخمسة غير متأكد منها تماما ، فقد خبر المدينة كلها ، ودقق فى شوارعها وحواريها لكنه لم يعثر على بيت مشابه . كأنه كان منوما أو لعله كان يحلم . لم يمده التاريخ المرضى بشىء، ولم يشغله فى الفحص سوى رقبتها التى خلت من العقد . اعتقد أنه رأى هذه الملامح ، بيد أنه لم يجرؤ على مفاتحتها فى أشياء غير متأكد منها . كف عن الأسئلة . صمت مستعيدا حالة الهدوء والنشوة التى ابتعدت منذ دخلت عليه أروى .

حافتان بارزتان . بينهما هوة سحيقة . تيه .

- أريد أن أتعشى .

ألجمتهم الفرحة جميعا فصرخوا ثم ضحكوا ، والتفوا من حولها فى دهشة ، وبدوا فى دهشتهم البدائية ولغطهم المتداخل أشبه بحظيرة من البط هاجت فجأة ، فلم تميز من صخبهم الجزل سوى سؤالهم : أين كنت ؟ ولم تكن فترة اللعب طويلة لتتضور بهذا الشكل . نفس الوقت مابين الغذاء والعشاء ، لايزيد . دخلت عليهم فجأة وصرخت كأنها لم تأكل منذ سنة : أريد أن أتعشى ! وكانوا بالنسبة لها كمن انتهوا لتوهم من العشاء بدونها ، غير أنهم صرخوا وفزعوا ، ثم ضحكوا وأخذوها بالأحضان ، وقال لهم علىٌ الدين - الذى رأتهم يسمونه على محمود - أنه وجدها فى نفس المكان الذى غابت فيه.

غابت كأن الأرض انشقت وبلعتها وظهرت فى ذات المكان الذى صار مشتلا لأشجار الزينة بعد أن انحسرت عنه المياه ، بذات الفستان ، وذات تسريحة الشعر، وذات الحذاء . كعملة فقدت ، تم البحث عنها بدقة دون جدوى ، وبعد فترة طويلة ظهرت فى نفس المكان . كان سؤالهم قد توحد : أين كنت؟ فقالت ببراءة :

- كنت ألعب .

ردوا فى صوت واحد وعيونهم مفتوحة :

- سنتان ؟!

كان الماء يفيض من فرع دمياط ، فيغرق المسافة من عزبة الزراعة حتى كفر السرايا . يجرف فى وجهه الموز والقصب الأحمر والذرة ، فلا تصمد طويلا حجارة الدبش التى يضعها الأهالى وعمال الطرق فى صده . يخرج القريبون من الشاطىء من دورهم على ألواح من خشب حين يدفع الماء المحمل بالطمى أبوابهم كأنه طوفان . هل كان يعلم أنه الفيضان الأخير ، فقرر أن ينتقم ويغرق كل شىء ؟

صرخ على محمود على ابنته أروى ، ذات الصرخة التى صرخها بعد عامين بين أشجار المشتل حين فاجأته ذات مساء فى نفس المكان . تخلف عن الطوفان الأخير طمى وغرين أحمر ناعم ، وانحسر الماء عن مساحات واسعة من طرح النهر المحمل بالطمى الأحمر ، وفى ذات المكان زرع على محمود مشتلا لأشجار الفواكة والزينة ، وأقيمت البيوت مرة أخرى بالحجر دون خوف هذه المرة ، وأطلت الشرفات العالية عليه دون رعب ، واستبدلت الشوارع بالحارات ، فسميت حارة الدهشان بشارع الدهشان .

صارت تعصر ذهنها لترد على أسئلتهم ، مجهدة ذهنها لتكتشف فترة ما ، محددة لاتعرف طولها ، بدأت بلعبها مع أطفال هنا ، وانتهت بظهورها فى نفس المكان ، ثم طلبها للعشاء . فترة مفقودة من ذهنها تماما . كلما حاولت استعادتها ، تعود الذاكرة منسابة وحيوية ومتدفقة ، لكنها عند الحافة البارزة ، تتعثر وتعبر الهوة السحيقة تماما كصفحة يتعذر قراءتها ، لتلتحم خلف حافة أخرى بارزة بطلبها المفاجىء للعشاء . كان علىٌّ الدين منذ أن انغلقت خلفهما بوابة القصر يطوقها بذراعيه على الحصان البنى ذى القوائم البيضاء ، ونقطة سوداء بين عينيه ، يهبط بها هذه الدرجات الحجرية المنجدرة ، يزغزغها فتضحك ، يراوغها كطيف وسط مروج خضراء كعادته . يتخفى خلف نخيل كبير ثم يبرز من حيث لاتتوقع ، فتصرخ وهى تضحك وسط بنات وصبيان يمرحون بثياب مبهجة وملونة ، ثم انتهى الاحتفال فجأة ، قبل أن ينتهى اللعب . أظلمت الدنيا قبل أن تجده خلف جذوع النخيل ، وبين

الأعشاب والأحراش . شعرت أنها جوعانة وبردانة وخائفة ، فنادت بين الأشجار المعتمة بلوعة :

– عليُّ الدين .. أين أنت يا عليّ الدين ؟ كأن الأرض انشقت ولفظتها بين الأشجار ، فاحتضنها وهو يصرخ بفرح : أين كنت يا أروى ؟ وكان كلما ينزلها من حضنه يهمس في أذنيها : ما حكاية عليُّ الدين هذه يا أروى ؟ ومن شرودها لم تكن ترد ولم تشأ أن تسأله عن حكاية علي محمود هذه . كان لكل شيء طعم مدهش : العشاء ، والبشر ، والشوارع الضيقة الملتوية كمتاهة بإضاءاتها الخافتة المنبعثة من كوات صغيرة بالحوائط . كانت تتلفت كتائهة للأكواخ الطينية ، تقترب منها بلهفة وشوق لترى الأحصنة ، فيخرج منها آدميون ، يفتحون أفواهم فى دهشة ، ثم يبتسمون ويريدون أن يحتضنوها فتشلها المفاجأة وتتشبث فزعة بعلى محمود : توقفت أخيرا وقالت : كفى.. أريد أن أرجع . نظر إليها مندهشا : إلى أين ؟ فهزت رأسها:

– إلى القصر.

قال إنها لم تكد ترجع إلى أبيها وأهلها ومدينتها ، فأين تريد الذهاب ؟ بكت ولم تكف حتى أسلم نفسه لها ، تسير أمامه فيتبعها ، لاتقودها عبر غرب المدينة أو جنوبها الغربى سوى روائح غامضة وصور بعيدة لأرض غير سهلة ، تصعد بها لأعلى . منجذبة بهذا الانحدار إلى أعلى ، كانت تثق أنها ستجد ماتبغى هناك ، فى منتهى المرتفع . لم تكن تسلك طرقا بقدر ما كانت تخوض وسط زراعات ومدقات صغيرة منحنية وملتوية ، تتجاوز أكواخا ودورا وقرى . تغفو وتفيق ، ترقد وتنهض ، يروح ظلام ويجيء صباح ، ولا تحصل من متاهتها الكبيرة إلا على سؤاله المندهش واليائس : ماذا تريدين؟ وعم تبحثين ؟ تظل كخرساء حائرة ، تتوق إلى مكان مثبت جيدا بذاكرتها ، رائحته فى أنفها ، تراه لكنها لاتستطيع نقله إليه ، فتنفجر فى بكاء أخرس وعنيف .

نصحه خالها بعدم فتح الموضوع أمام أى مخلوق ، ونفض إمام الفنجرى يديه - معلنا عجزه - وقال إن الزمن وحده كفيل بعلاج الأمر ، وما عليه سوى أن ينتبه إليها ويتتبعها لأنها عرضة للاختفاء مرة أخرى ، وحذره من عرضها على الأطباء خصوصا أندراوز . وطلب محمد البيه مرة أخرى خصلة من شعرها واسم الأم الحقيقى ، وعاد ليؤكد أن كل مافعله سليم ، بيد أنه لايستبعد احتمال أن تكون البنت قد استبدلت عن طريق الخطأ بأخرى ، تشاركها الاسم واسم الأم ، إلا أنها ابنة ملك قديم ، ومن ثم لن يكون الحل سوى بالانتظار .

كان شرودها المصحوب بالذهول والحدة والعصبية هو السمة الغالبة ، مع ذلك كان على محمود على استعداد لأن يتبعها إلى مالا نهاية ، كأنه الوحيد الذى يشعر بما تعانيه وتبحث عنه ، لكنه لايملك حيال ماتطلبه سوى أن يتبعها متسائلا فى صبر :

ألا يكفى هذا البحث يا أروى ؟

لاترد .

يعاملها برقة كأنها مريضة حين تسأله عن الأشجار الغريبة فى المشتل فيرد باستغراب :

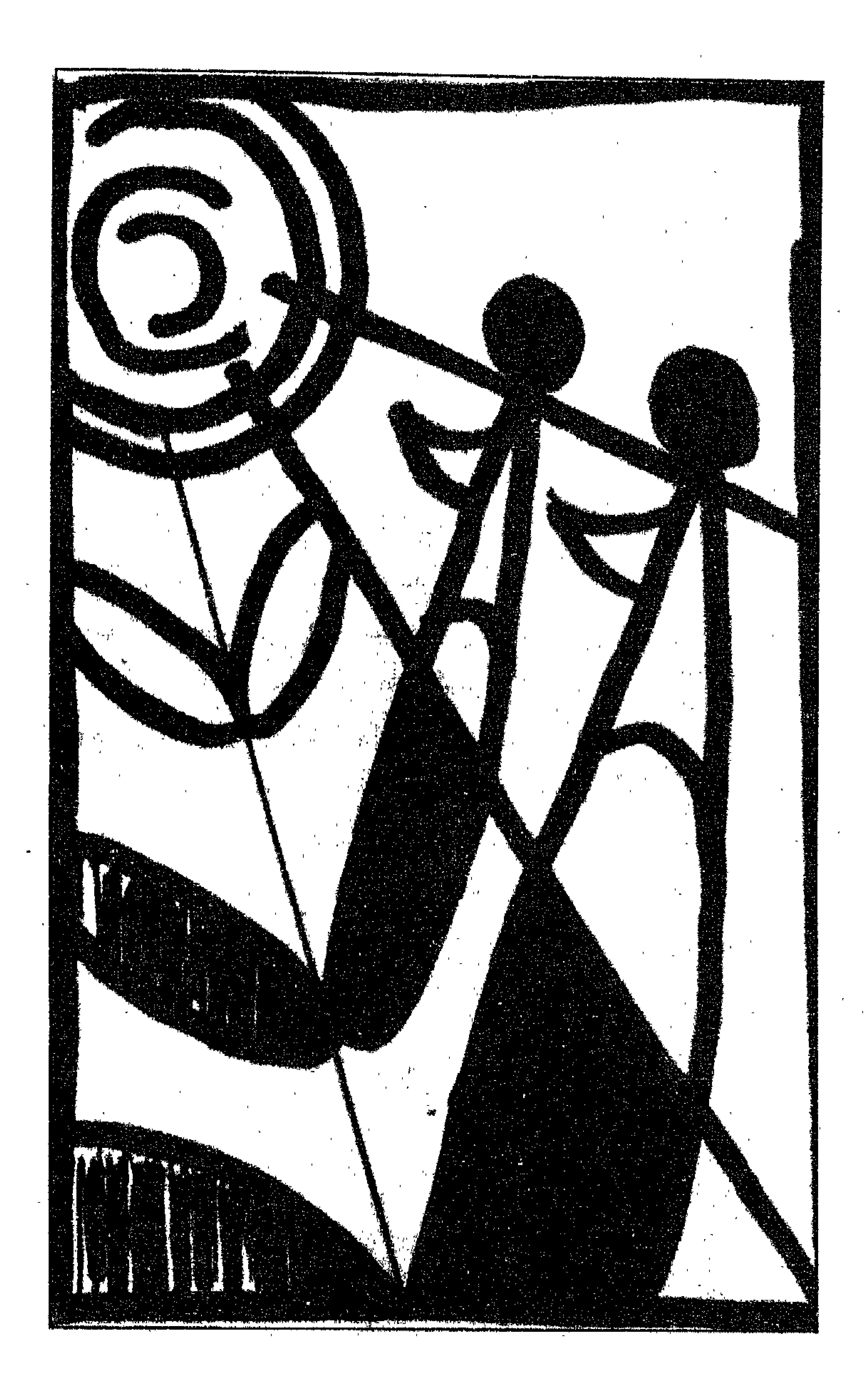
- إنه التوت ياحبيبتى ؟

تقول إن التوت الذى تقصده ليس ذلك ، فيقول :

ربما تقصدين التوت الرومى .. الأفرنجى لانعرفه ، والتوت المتوفر هنا ، الأبيض والأسود وخد الجميل ، فتقول : لا . حتى الأشجار التى تعرفها ، تتوتر حين تسأله، فيرد وهو يشير بإصبعه فى الهواء بالترتيب : كافور ، جاوزرين ، عبل، صفصاف ، نخيل ، زنزلخت. وتقول بعناد : ليس هكذا ، له اسم آخر ، لاتتذكره ثم تسير على الطريق الساحلى الموازى للنهر، تسأله عن مساحات الموز الهائلة ، فيقول إنها جزيرة فى النهر ملك لأولاد فهمى باشا، وهى مزروعة بالموز منذ كان هو نفسه صغيرا لايعرف الموز ، ولا توجد هناك

قصور يا أروى ، فقط سرايا كبيرة ، وسط مائتى فدان من الموز ، رآها مرة واحدة حين كان طفلا ، وكان فهمى باشا أول من زرع الموز فى جزيرته، ولم يكن هو أو أترابه فى هذا الجانب من النهر يعرفون بعد ماهو الموز وماهو طعمه ، حتى عبروا النهر وتسللوا إلى الجزيرة عوماً ، وبعد إرهاق قطعوا أوراق الموز الكثيفة وأخذوها إلى الشاطىء وجلسوا يمضغون الورق متحملين طعمه المقزز حتى تقيئوا على الشاطىء ما أكلوه ، وظلوا من هذا الجانب يشتمون فهمى باشا الجالس بعيدا بلاشك فى كرسيه أمام السرايا وهو يعلم أنه يزرع موزا لا طعم له .

تواصل السير كأنها مغيبة ، حتى طحلة وكفر طحلة وساحل دجوى ، بين أشجار المشمش ، والبرتقال والمانجو . تحتار حين تدمع عيناه ، إذ تكون حدودها حين تتلألأ فى عينيه ، فتعرف أنه ليس لديه بعد ذلك شىء ، وأنه تعب ، تتظاهر بالصمت . استفحل الأمر فقرر أن يذهب بها لأندراوز ، لكن القطار القادم من القاهرة باغته على كوبرى الرياح . نفس القطار الذى خلا لأول يوم من أندراوز ، فتركها فجأة وهى فى الخامسة دون أن يترك لذاكرتها الصغيرة بعض ملامحه ، أو بيتا يتردد فى جنباته اسمه ، فتنساب من عينيها الدموع الحارة كلما مرت بكوبرى القطارات على الرياح التوفيقى حيث كان يعبر حاملا بين ذراعيه المفرودتين كومة من أشجار الياسمين وشتلات السرو والمشمش ، لبيعها فى أول طريق العمار وبلتان، حين فاجأه القطار.



مرتان يجيئه فى نفس الليلة ولا يكلمه . مرتان يسلمه ورقا أبيض ملفوفا كبكرة من حرير . ومرتان يستيقظ ولا يجد شيئا . فى الثالثة قال له :

«لاترحل من كون إلى كون ، فتكون كحمار الرحى، يسير والذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل عنه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون».(★)

أذن الفجر ، فنهض . قرر أن يزوره قبل الأمتحان . رأى أن يأخذ بيرقا أبيض ، يضعه على مقبرته فى المرج ، وقبل أن يصل كانت دموعه تنهمر على انتقاله وانقطاع الخيوط القديمة نهائيا بهذا الشكل السريع ولم تكد تبدأ .

أذهلته - حين جفف دموعه - الراية البيضاء المرفوعة على المقبرة ، فى ذات المكان الذى فكر أن يضع فيه بيرقه .

كحلم فى الهزيع الأول من الليل ، حين رآه بنفس الجلباب الذى تركه به أول أمس ، ونفس صمته المتأمل .

انتفض من خلف مكتبه ليرمى بنفسه فى حضنه .

قرر أن لايتركه من بين ذراعيه .

- كيف جئت ؟!

كنت عابراً من هنا وأردت الاطمئنان عليك .

- أوحشتنى والله العظيم .

كان يعى وهو يخاطبه أنه انتقل أول أمس ، وأنه لم يدفن هنا ، فقد تأخر

★ من حكم ابن عطاء الله السكندرى

أعمامه فى الوصول إلى المكان ، وإنقاذا للموقف دفنه أقارب زوجته فى المرج .

كحلم فى الهزيع الأول من الليل ، عاتبه لأنه لم يجيء ، وعرفه أن مقبرته هنا ظلت مفتوحة بانتظاره حتى منتصف الليل .

بعد ذلك أغلقها جمعة أبوالجود . ابتسم :

– أنسيت أن طاقية واحدة لاتسع رأسين ؟

– حتى بعد الموت ؟

أومأ برأسه ، ثم دمعت عيناه . كأنه حلم. دفع إليه بكوب الشاى. فرد كفيه معتذرا ومستغربا كأنه يلومه .

– هيه .. ما أحوالك ؟

– الحمد لله .

– أعندك ورق هنا ؟

فأومأ برأسه فرحا .

نهض لإحضار الورق ، ولم يكن يدرك إن كانت الترانيم الخافتة والغامضة التى تتناهى إلى رأسه للدرويش المداح ، أم أنها أنينها المتناهى من غرفة الولادة. تلك الترانيم القريبة من لحن أوشك أن يعرفه ، غير أنها انقطعت بمجرد دفعه للباب .

لحقه صوته :

– هل معك أحد ؟

– امرأة تلد .

– هل معها أحد ؟

– لا أحد .

مال بجسمه ليخرج الورق من الدولاب الزجاجى ، وبينما كان الواقف فى غرفة الولادة لايرى من النخل سوى جذوعه الباسقة ، كان المستلقى يرى

الجريد متدليا كأنما من السماء ، فخطر له أن الترنيمة كانت «يا جريد النخل العالى» . خرج بالورق من الغرفة ، واصل كلامه بأنها بكرية ، وأمامها وقت حتى تلد ، سيمضيه معه ، لكنه لم يجده . كأن أحدا انتزعه فجأة . من أمام باب العيادة جاءه صوته :

– أمامك وقت إذن ؟

– نعم .. وقت طويل . أطل فى بئر السلم ، لكنه لم يدركه .

كان الصوت المعاتب بعيدا :

– يا للحجاب ! شهدت الكون ولم تشهد المكون .

وضع الورق على مكتبه حزينا وصرخ :

– يا ليلى !

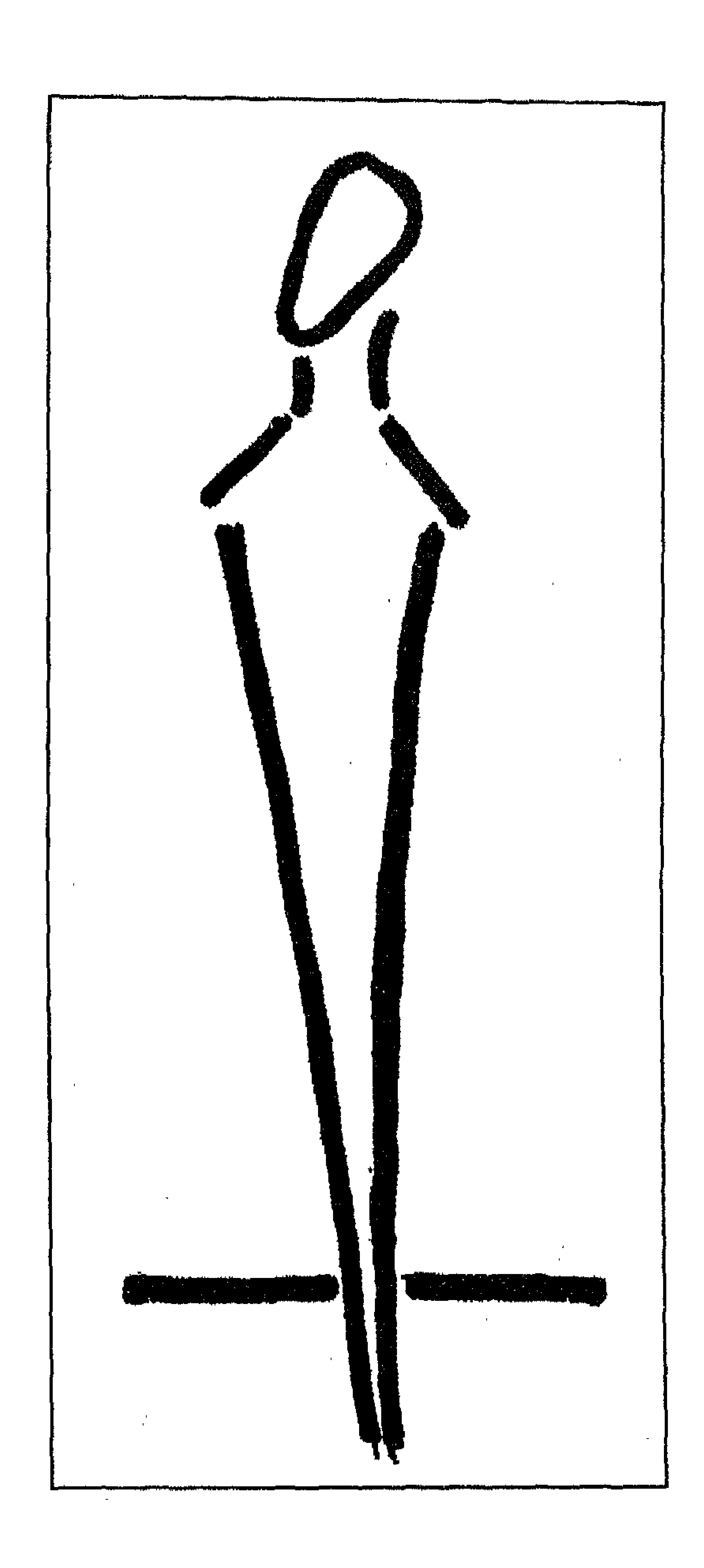
فخرجت من حجرتها هادئة ومنيرة تتلفت .

خبط رأسه بيده ، وبدا مرتبكا :

– أروى أم ليلى ؟

– وهل هناك فرق ؟

لم يرد . هذه عادته حين يفاجئه السؤال . يتزاحم فجأة أكثر من موضوع على لسانه ، فيجيب إجابة لم يكن يقصدها ، أو يبص لجهة أخرى مصابا بحبسة فى الكلام ، فقد تزامنت رغبته فى معرفة لماذا طلبه أول أمس ، ومعرفة أخباره ، مع تذكره المباغت أن الدرويش المداح على مدى عشرين سنة كان يرتدى نفس الجلباب ، وأن الصبى الذى لايكبر ويقود الحصان ويوقع فى ذات الوقت على الدف هو ابنه ، وأن العربة على مدى عشرين سنة أو يزيد فارغة ، لاشىء عليها ، وأنه بالسرعة التى تجاوزه بها هذا الصباح ، فإنه يذرع المدينة من شمالها إلى جنوبها فى خمس دقائق وعشرين ثانية ، لكنه لم يدر لماذا غير الدرويش طريقه هذا الصباح.



ألم بسيط لكنه غامض ومتفرق. شعرت بالمباغتة رغم توقيته المتوقع. خالجها شعور بأن شيئا غير عادى سوف يحدث، وأنها تخوض وحدها – في طريق قد ينحدر فى أى اتجاه – رحلة قد لا تنتهى بالضرورة نهايتها المعتادة . نوبات من ألم مبهم . تتقلص بطنها وتتكور ، فتسلم رقبتها للخلف، وتسند بيديها أسفل ظهرها حتى يزول.

تغمض عينيها وتشم بأنفها فانلة صغيرة وجلبابا ملونا مفتوحا من الخلف. وطرطورا من التل الأسمر، فترى كم سيكون لائقا بالآتى ملابسه الطفولية وعقد اللؤلؤ المنفرط. .

– إدينى عمر وارمينى فى البحر ..

راديو الجيران أم كلمة عابرة لشخص بالشارع ؟ لماذا حواسها اليوم مرهفة لهذه الدرجة ؟ وقعت عيناها على عزيزة بشعرها الأحمر تضبط فيونكتى شعرها، فأغلقت النافذة بسرعة . تحب عزيزة جدا لكنها لم تكن ترغب فى رؤيتها اليوم . فتحت الباب لتخرج ، فوجدتها أمامها بشعرها الأحمر تمد ذراعيها الصغيرتين ، حاملة صورتها ذات الفيونكة الحمراء فى يد وملف التقديم لأولى ابتدائى فى عام قادم فى يد :

– تانت أروى .. بتقولك ماما .. دبسى لى الصورة هنا ..

فى رسالته المقتضبة ، أخبرها راشد أن المدة قد تطول ، لكنه حتما سيعود إلى ملكته أروى وأميرته التي ستخرج إلى الحياة . فى ردها لم

تخبره أنها صارت وحيدة، وعبد المجيد الصعلوك مضحك الملوك قد خانها ولم يعد يجيء بمجرد التفكير فيه، وما إن أتم الطبيب فحصه مؤكدا أنه سليم حتى مات ، وأن البيت الذى كان فسيحا بهذا الشكل الذى يعرفه ، فرغ حتى من الحصان البنى البعيد، وأن عزيزة الصغيرة سوف يضيع عليها عام دراسى كامل من أجل اثنى عشر يوما ..

فقط تساءلت إن كان بإمكانه أن يتصور أنه لكى تدخل عزيزة المدرسة هذا العام ، كان لابد أن ينقص عمر أمها اثنى عشر يوما أخرى .

أغلقت الشبابيك وبابى حجرتيها على الفناء ، وقالت لعزيزة التى فاجأتها بالملف والصورة واقفة أمام بوابة الفناء : لماذا صحوت مبكرا يازيزى ؟ لا تنسى أن اليوم عيد ميلادك . كل سنة وأنت طيبة . قبلة لك وهذه لماما فاطمة . أو شكت أن تقول إن ماما فاطمة تعنى جدتها ، وأن ماما الحقيقية هى عزيزة، وأن ما يحدث تزييف كامل لن يغتفر لوعى الصغيرة ، لكنها صمتت وأرجأت تدبيس الصورة حتى تعود عندما غالبتها الدموع، لمجرد أن زيزى لا تعرف ماما الحقيقية ، ولو بخدعة مؤقتة من باب الشفقة ، من قبل ماما عزيزة مسافرة وعندما تعود ستحضر أشياء كثيرة ..

صعدت المنحدر وأخذت طريق الكورنيش، فلم تر النهر . كانت نوادى النقابات تحجبه : التطبيقيين ، الزراعيين ، المعلمين ، الشرطة .

– أين النهر ؟

وحدها على الساحل الممتد من الطريق حتى المجرى الحقيقى، والذى آلت وراثته إلى النوادى، تصيبها الوحشة وهواء الصباح البارد والسكون الغريب، والألم يستحيل أكثر شراسة حين يتكوم فى البطن ويضرب فى الأسفل كأن شيئا سيسقط. تكتم الآهة وتنحنى إلى الأمام كى يخف الألم، حتى بدت وهى تغالب الألم وحدها فى هذا الطريق الفارغ ذى النسمة الباردة كمن يطلق عليه النار فى مكان فسيح فيتلوى فى الهواء قبل أن يسقط. مالت إلى شارع النبراوى ، تحتمى بالبيوت الصغيرة والأرصفة .

كان أكثر دفئاً وحميمية من الكورنيش . قبل أن تصل سوق الخضر بزحامه وصخبه، انحرفت يسارا إلى شارع يوازى الكورنيش وشارع السوق لكنه نائم وهادىء . بدت غير لافتة للنظر، وهي تتكىء كعجوز على الحيطان لتتفادى الألم الذى يتجمع فى ظهرها ثم ينفجر كعيار، وبات واضحا أنه فى ذات التوقيت بدأت رحلتان لكائنين ، يسعى أحدهما للخروج بكل عنفوانه من آخر يتشبث بالحيطان وبفتحات الأبواب . وبدا أن هذا الطريق لا تعرفه . ولا تجدى فى معرفته أقوال من مروا. روح تنفصل عن روح ، ونفس تنعتق من أسر نفس. فكيف للكلام أن يعبر عن رحلة تتعطل فيها الذاكرة ، ويسير المارة كأحصنة مغماة فى نفق ؟

انطلق الصوات من داخل بيت إمام الفنجرى ، فهرع الواقفون أمام دكان سمير البقال والمتراصون أمام المحكمة الشرعية. استراح إمام الفنجرى من إدخال يده فى القرح الغائرة التى ملأت جسمه، كأنه يدخلها فى سيالة دون وعى، واستراح من الصراخ المتواصل . أسرعت حتى وصلت إلى شارع المديرية ، بنصفه الأيمن التجارى وصخبه حتى المحكمة، ونصفه الأيسر بصمته الواضح حتى الكورنيش رغم البندر والمديرية وعمر أفندى الجديد والمطافىء فأذهلها أن تكتشف الآن فقط أن للشارع نصفين. نصفاً حياً ونصفاً ميتاً، اتجهت الى اليسار . باغتها الدرويش المداح قادما من النصف الميت. أثار حنقها تعليقه لحصان فى عربة قذرة . ودت الاشتباك مع الدرويش الذى لا يعلم أن الأحصنة للركوب فقط والجر للبغال، لكنه لم يقف . كان الحصان عفيا يشبه إيقاع حوافره المنتظم الرقص، حتى أن الدرويش الواقف على سطح العربة المارقة لا يسقط ، يخرج بخار الصباح من منخاره طازجا. ودت لو توقفه وتطلق سراح هذا الحصان فى الخلاء، فالأحصنة لا تهان بهذا الشكل .

للأحصنة حب لا تقاومه. شعرت بروحها تنسحب عندما انسحب حصان كان يتطلع وحيدا فى واجهة عمر أفندى الزجاجية حين أحس بصاحبه

يقترب. جذبتها أذناه الدقيقتان وقصته الطويلة، وشكل الرأس، حركة جفونه الذكية، وسرجه الملون، وجسده البني اللامع وقوائمه الرشيقة وبطنه الصحيحة ولمعة الذكاء في عينيه. قالت مستحيل أن يكون حيوانا هذا الفرس البني الواقف وحده أمام عمر أفندى. يتأمل فى الزجاج ، لا يهتم بالسيارات ولا بالمارة ، ولا يأخذ السكر من أحد ويهز رأسه بالرفض كلما اقترب أحد من اللجام، وحين شعر بصاحبه من خلف الزجاج يتجه إلى الخارج، هز أذنيه وتحرك باتجاهه ، فامتطاه صاحبه الذى بدا كأنه كان يغلقه كسيارة بمفتاح وسار به سيرا وليدا ..

كانت ترنو بحسرة فى امتداد شارع المديرية الى الحصان والدرويش. لم تتبين من الزحام والنشاط غير المعتاد فى النصف الصاخب من الشارع أن اليوم هو الاثنين ، حيث السوق الأسبوعى، وإنما تبينت أنه كذلك حين رأت مدخل عمارة أندراوز خاويا من المرضى والمحلات بجواره مغلقة. قبل أن ترتد متحيرة، أشارت نعمات الملط أنه فوق ينتظرها . لم يكن ثمة أحد بالشارع سواها، ولم يبد أن نعمات تكلمها . واصلت صعود السلالم، وتنفست بارتياح حين رأت مستطيل الشمس المشرقة خارجا من باب العيادة. اتكأت بمرفقها على الباب وظلت صامتة.

لم تعد تشعر بالألم كما كانت فى الطريق ، ولم يكن بأذنها سوى وقع أقدام راشد والذى سيشبه صعوده وقع أقدام حصان يجري. تعرفه من رائحته الأشبه برائحة برتقال حادة، تمكث فى المكان حتي بعد رحيله ، عالقة بملابسه وبكل ما يلمسه. قامت من السرير ، تتمشى ببطء فى الصالة بين نوبات الألم، تطل على السلم بلهفة كلما هبت رائحة برتقال . لم يخرجها من شرودها إلا سؤال الطبيب :

– أين راشد الآن ؟

لفظ البـاب راشـد بقـسـوة ثم انغلق ، فلطشـه هواء بارد، لم يقـو على التحديق فى شمس فضاء خاو، ولم يتبين من الدفعة الغاضبة فى ظهره أو الباب الذى انغلق بقسوة شيئا يذكر. تقدم للأمام واستدار وحدق بعينيه . لم يكن مكانا يعرفه ولم يكن ثمة حديقة، وحيثما كان يراها دائما، لم تكن هناك. حاول الدخول ، لكن الباب الذى لفظه منذ قليل كان قد أغلق. من أين جاء إذن بكل هذه الأشياء ؟

سار طويلا ، حتى قابله أحد المارة . سأله عن الوقت. فقال: العاشرة. وضع يده على جبهته المتورمة محاولا التذكر :

– فى أى يوم نحن ؟

– الاثنين .

كانت كدمات جبهته مريعة وهو يستطرد فى الاعتذار ويستفسر عن الشهر والسنة، حدق المار فى ملامحه متوجسا، ثم هرول .

واصل السير تاركا نفسه لإعلانات الشوارع ، ولوحات الأتوبيسات . وبقدر ما كانت ذاكرته تنتعش ببطء كلما توغل فى الشوارع والزحام ، تبين من تخبطه أنه عنصر معوق لمارة يسيرون بسرعة ، ويعرفون فيما يبدو اتجاهاتهم بشكل صارم فى هذه الشوارع المربكة .

كأسير بصحراء واسعة لا يؤدى السير فى اتجاه أى منها سوى إلى خواء ، كان يشعر أن أحدا بيده أمر هذه البيداء، بإمكانه أن يخرجه منها إذا شاء. بينما بدا منزعجا كمن تأخر فى نومه عن شيء هام، كان يستيقظ

على نار تهب على مرمى بصره باتساع الأفق، تسوقه أمامها فزعا ، تقيل حيث يقيل وتبيت حيث يبيت، فيظل راكضا أمامها حتى تحاصره فى هذا المكان. الذى يأخذ في الضيق تدريجيا حتى يتفاقم شعوره بالعزلة، ولا يكون ثمة سوى باب مغلق، يطرقه بإلحاح بكلتا يديه. وقبيل توقف أعضائه تمهيدا لإصابتها بالعطب، فإن ثمة من يجذبه من الخلف باتجاه النار :

- ماذا تفعل ؟

ينتبه على جبهته التى تدمى من كثرة الارتطام بالباب الموصد، وكبقية من أسرى تعدو باتجاه مدينة مهجورة، تتدافع الأحداث بغير انتظام إلى ذاكرته الممسوحة ، فتختلط وتتداخل الأماكن والأزمنة ، ولا يدرى فى أى هذه الأماكن كانت البداية، ولا أيها أفضى إلى الآخر، فثمة من يعذبه مجاورا لمن يربت كتفه، وسيدات مهذبات يشرن نحوه بعلامة النصر، وفتيات يقبلنه وهن يقدمن إليه باقات من ورود ، يتبين كلما اقتربن منه أنهن يرتدين بلوزات قطنية عليها صورته، وأيد كثيرة تفحصه، وأصوات بلغات مختلفة تتناقش حوله، وتنقل ما يقوله ، وأجهزة يتعرض لها كأجهزة أشعة، وبطاقات ورسائل تحية، وهو مقعد بكرسى متحرك، أو بسرير أبيض ، وأكاليل تتعلق برقبته ، وخطب تلقى ومنصات وأقفاص وأقنعة موصلة بأسطوانات وصراخ وألم ، وجروح وأربطة وضمادات وأدوية وزيارات ولجان وتقارير وجبهة تدمى، شبه ممسوحة ، لا تكفى الرواسب العالقة بها لتكوين شيء مفهوم ..

هل كانت البداية عمله المؤقت أثناء الجامعة فى فترة المعرض، كموظف استعلامات لإرشاد العارضين والزوار، ومثل أى شاب متحمس يرى الرقص فيتحرك جسده، نسى أنه يعمل بالمعرض، وهتف مع الغاضبين أمام جناح إسرائيل ؟ كان طوله الفارع وصوته الجهورى وشارة العاملين بالمعرض على صدره أكثر ما لفت انتباه السياج الأسود الكثيف من قوات الأمن المركزى ، فطوقوا الجناح بالغاضبين وعزلوهم تماما. كيف تفرقت أفواج الغاضبين دون أن يدرى ، ومتى ضيق سياج الأمن المركزى الخناق حوله وحده وقد بحَّ

صوته ويهتف كمجذوب في حلقة ذكر؟ لا يعلم عن ذلك شيئا، فقط، أخذوه وحده، سلموه إلى شرطة المعرض، حيث وجه عقيد اسمه : سمير عبد ربه، شتيمة بذيئة جدا له ولأمه فقط، وحين نبهه إلى أنه يعمل في الاستعلامات ، شخر وسب الدين لإدارة العلاقات العامة كلها، ثم وجه له اللكمات بنفسه، وكان باب الإدارة الذى دخل منه هذا الصباح بهذه الشارة كموظف هو ذاته أول باب يلفظه . ظلوا يدحرجونه عبر الطريق حتى عمارات الضباط التى لم تسكن بعد. إلى متى ظل مرميا بين عمارات الضباط؟ وكيف عاد إلى البلد وكيف ربتت كتفه ثم بصقت على المعرض، في اليوم السابع غالبا سألها فقالت : ألا تعرفنى ؟ قال إنه غير متأكد ، لكنه يعرفها فبصقت مرة أخرى على المعرض وقالت :

– خالتك نعمات .

لم يمنع بعدها فحسب من الاشتراك فى العمالة المؤقتة مرة أخرى ، إنما تسبب فى استحداث نظام قبول آخر أكثر صرامة، يبدأ بمقابلات وأسئلة معينة ودقيقة، ثم تعليمات مشددة من شرطة المعرض ضمن برنامج مكثف لمدة أسبوعين قبل بدء المعرض، أقله عن طبيعة العمل، وأكثره تعليمات أمنية، ينتهى بتعهد كتابى من الشخص المقبول بأن لا ينخرط فى المسيرات .

ظل جسده يؤلمه ، فسار إلى جوارها بطيئا وشاردا وغاضبا لا يعرف على وجه التحديد لكمات من التى أفقدته اتزانه: سياج الأمن المركزى ، أم العقيد سمير عبد ربه؟

كانت تتكلم وهو يحدق فيها كتائه، وفى اليوم السابع سألها فقالت:

– أروى، صرخ بدهشة:

– الملكة أروى ؟

دخل مجلس المدينة. كان ينهى أوراقا من إدارة حماية الأراضى حين سمع من الراديو الصغير أمام الموظف أن السفير الإسرائيلى سيسلم اليوم أوراق اعتماده . تزامنت قراءته للافتة علي باب الإدارة مع سماعه الخبر فى

موجز العاشرة ، فخبط المكتب بصوت عال . أمر الموظفين الذين يهملون فى مهمتهم الأساسية بالقيام والتجمع فى حجرة واحدة. لم يكن متأكدا من امتثالهم بهذه الدرجة أمام صراخه العالى. ساد المجلس الهرج، وحدقت العيون نحو الإدارة التي ساد موظفيها الصمت والذهول والرعب، وقالوا :

- ماذا تريد .

فقال :

- ما قلته لكم .

متى تكهرب الجو واتصل مدير الإدارة برئيس المجلس الذى طالبه بالهدوء واتصل بالبندر ، ومتى جاء الضباط الثلاثة الصغار لينفذوا من وسط الزحام ويسألوه عما يريد. ومتى انصرف أحدهم وجاءت هذه الرتب الكبيرة وكيف نسى راشد ما جاء من أجله ، وتذكر فجأة ما حدث بمعرض القاهرة، استفزته عجرفة الضباط الثلاثة التى لا تتناسب وسنهم الصغيرة، فلم يرد على أسئلتهم، ولم يعر اهتماماً لتحذير الرتب الكبيرة بأن الناس الذين يحتجزهم - إن لم يكن يعرف - رهائن . وأنه يعرض بذلك حياتهم للخطر، لم يكن يعرف حقيقة ما ستؤول اليه الأمور ، لكنه زعق وقال إنه يعرف ما يفعله ، وكان فى ذهنه فقط ما حدث له من إهانة فى المعرض، ومن العقيد سمير عبدربه ، وربما وجد الفرصة سانحة والضباط الكبار موجودين فيسبب الإحراج للجميع . لم يخطط لذلك بالتأكيد . ولم يكن يعرف عواقب الموضوع، إنما جاءه ذلك فى لحظة ، كوحى أو كهاجس، فقرر أن يتمادى ويتبنى هذه الفكرة، كنوع من الثأر ، منتشيا كلما تفاقمت الأمور، ولا يعرف نفسه من أين أتاه هذا الإصرار على رفض مساومات مدير الأمن، فأبوه عبدالمجيد وشيخ الناحية وأقاربه ، وأهالى المحجوزين وإمام المسجد ، ثم المحافظ ثم الوزير. حذره الجميع من عواقب ما يفعل عبر الميكروفون ، وهو يرفض أن يلين ، حتى جاءه صوتها الذى ميزه عبر الميكرفون ، ميزه على الفور إذ كانت تبكى بصدق، نفس البكاء المكتوم يوم قابلها لأول مرة ، كيف

جاءوا بها، ولا أحد يعلم بعلاقتهما الجديدة، بحشرجة بكائها المختنقة التى يعرفها :

- من أجلى .. قل لهم ماذا تريد .

تهدج الصوت وحده ، وحنينه الواضح، هو ما جعل مقاومته تخور . كيف أتوا بها ؟ تلفت حوله . لم تكن التى بيده خشبة إذن كما ظن . إنما كانت بندقية ، وكان الذعر فى عيون الموظفين المحتجزين قد بدأ يقل؛ فنام منهم الكثير . من أجل البنت الرقيقة فقط لا من أجل الآخرين تكلم . طلب أن يعتذر الضابط الذى ضربه فى سوق القاهرة .

- نعتذر لك جميعا بالنيابة عنه .

- ويعود السفير الذي سيتسلم عمله اليوم.

- ماذا تقول يا روح أمك ؟

- كما سمعتم .. ومن أجل بذاءتكم ، لابد أن يعتذر لى سمير عبد ربه شخصيا .

سمع بكاءها بالخارج والميكروفون يبتعد عن فمها وهى تختنق ، وقولهم أن يأتوا بالعقيد سمير عبدربه حالا . تذكر أنه لم ينم منذ أول أمس ، وكان الفجر قد اقترب ، والموظفون الذين أكلوا ناموا، ولم يبد أنهم مرتعبون ، ولم يعتذر له سمير عبدربه عن ضربه وإهانته فى المعرض ، بل انقطع النور وبدأ ضرب الرصاص ، فتحطمت نوافذ الأرشيف والحمامات والحجرات . ظل الموظفون فى أرضية الحجرة منبطحين . كان الرصاص يجىء من كل اتجاه، وكان مرهقا لا يدرى أى النوافذ تتحطم من الرصاص ، ومن أى النوافذ يدخل القناصة في هذا الظلام ، ومن أين أتى كل هذا الضوء الباهر من كل النوافذ، ومن أين جاءه كل هذا الرصاص ومازال يشعر أن النفس يجرى فى صدره ، وكيف مرت هذه الربع ساعة الطويلة، وهل كسرت فقرتا ظهره هنا أم فى المعتقل ، غير أن ذاكرته التى شوشت فلم تميز بين المحامين الذين تطوعوا للدفاع عنه وأعضاء اللجان التى زارته ، كانت ماتزال محتفظة بأن

الذى كان فى مواجهته والذى دخل عليه وهو مضرج فى دمائه وأكمل عدد الطلقات فى ظهره إلى واحد وسبعين طلقة ، كان هو العقيد سمير عبدربه .

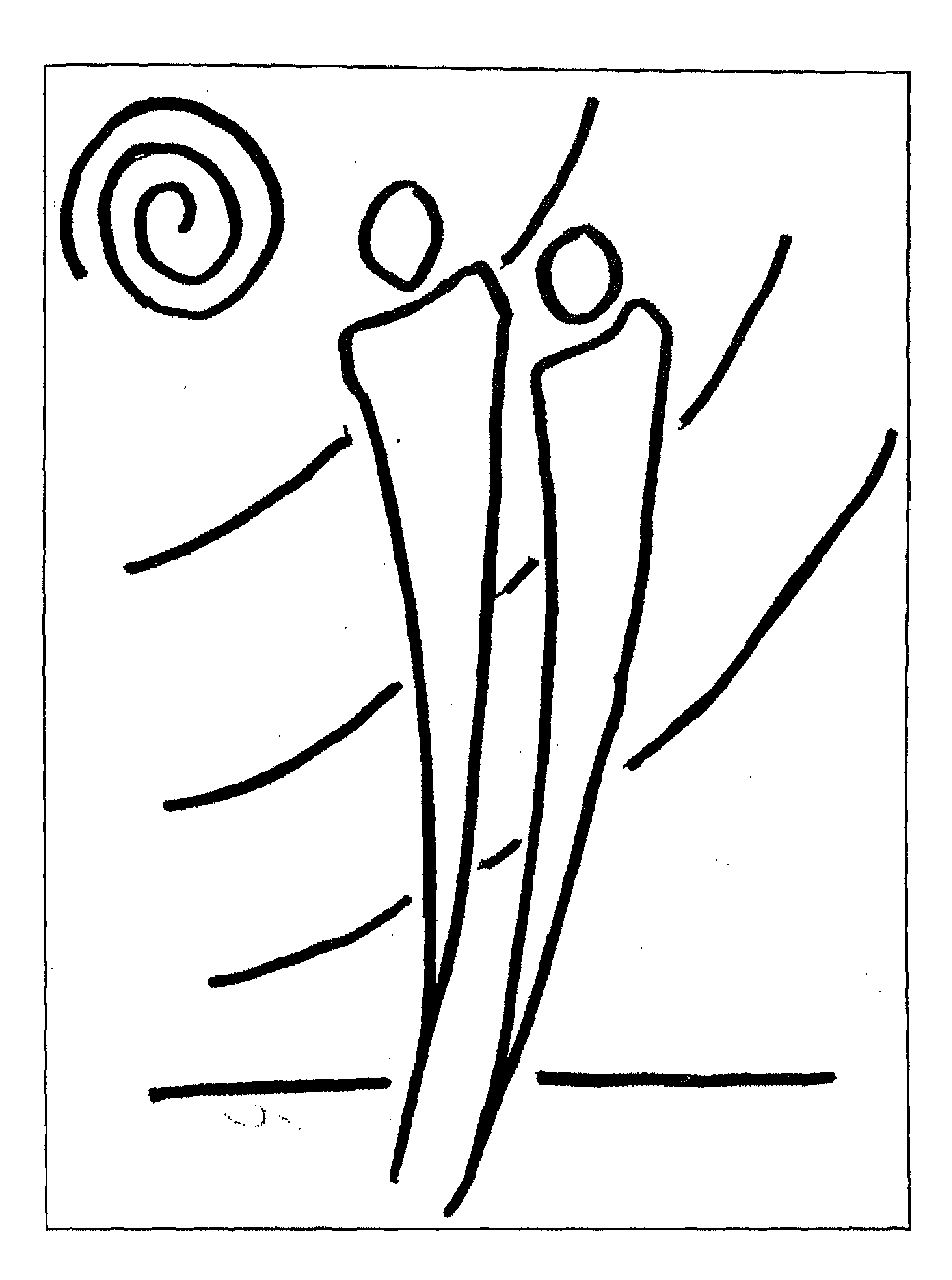
بدا متعجبا : من أين يجيء كل هؤلاء الناس ؟ لم يدرك تحديدا عم يتكلمون ، أو يخص الأمر من على أى نحو ، لكنه كان سعيدا ومبتسما رغم الكرسى المتحرك والضمادات ، كأنه في محكمة فى داخل حلم، يحضر جلسات ويغيب برغبته عن جلسات. كان مسترخيا وهادئا أكثر من ذى قبل إلا عندما رد سمير عبدربه على أسئلة المنصة ، فإنه قاطعه وزعق وهتف ضده وردد الناس فى القاعة خلفه الهتافات ، دون أن يستمع إلى تحذيرات المنصة . عدا ذلك كان متعاونا ينفذ الأوامر حين يذهبوا به إلى الطبيب، أو يمثل تحت لجنة من الأطباء . يفتح فمه للأدوية ، ويمد ساعده للحقن . تحاليل وعمليات وضمادات ، ومسامير وشرائح فى ساقه وكماشات تعض فى ظهره ، وأقنعة أكسجين وخدر لذيذ ، ومطارق يسمعها بأذنه ولا يتصور أنها تعمل فى جسده الذى لا يتحرك، وممرضات، ودوسيهات وتقارير تروح وأخرى تجيء ، وحين ابتسم أمام الكاميرات، ورفع إصبعيه علامة النصر، أتوا به الى هنا . هل كان فى المصحة منذ قليل ؟ لا يدري. ينتابه الشك أحيانا فى كون ما يتوافد على ذهنه الآن قد حدث بهذا النحو ، وقد لا يكون حدث بالمرة ، وربما يكون قد حدث في ذهنه هو فقط . يشعر أنه مازال يفتقد السياق الذى يضم هذه الأحداث المتداخلة، ويفسر له كيف تجتمع – فى آن – الدمرداش بالعباسية ، وقسم ٦ جراحة عظام بقسم ١٠ جراحة أعصاب ، وأرض المعارض بالحرم الجامعي ومجلس المدينة .

اعتاد بعد كل جلسة وبعد أن يتناول عقاقيره، وزوال الألم من جسده والدوار من رأسه ، أن يرى عبر الزجاج أطفالا كثيرين بحديقة واسعة يحيطون بطفلة تكبر كل يوم . يمرح الأطفال حتى ينهكهم التعب، فيرقدون على النجيل تحت ظل الشجر . يحدق أكثر فيراها في وسط الحلقة تماما، مضيئة كشمس ، يطير شعرها المنسدل للخلف وهي تقفز لأعلى كأنها تنط

الحبل. يحدق فيرتفع ذيل فستانها الأبيض. ويرتفع نهداها الصغيران فى انطلاق، وفيما يخشى على تاجها الملكى من الاهتزاز ، كانت تضحك ولايسقط. ينزل السلم بخفة ، لا علاج ولا أكل ، ويخرج إلي الحديقة ، فتصحو الشمس كلما اقترب من الحلبة ، وتنبعث الموسيقى الصاخبة ويتعالى نقر الدفوف ، حتى أن العصافير الملونة تطير بعيدا عن الشجرة . ما إن يدخل الحلبة حتى تنبت له أجنحة ، ويشتعل الرقص ولا يسقط تاجها الملكى حتى وهم يقعون على النجيل ويلهثون من التعب ويبتسمون . تتلاقى نظراتهما، فتبتسم من خوفه على سقوط تاجها الذى لا تحرص عليه، لأنه تاج غير حقيقى، وفيما يسألها عن اسمها ، يجد من يقيمونه بإرهاق عن النجيل الأخضر ، ينزعون أجنحته التى نبتت ويثبتون مكانها ذراعين ويأخذونه إلى الداخل :

- يكفى هذا اليوم .

كان يطرق الباب الموصد بكلتا يديه وجبهته . من خلفه صحراء واسعة ، ونار تحاصره ، ويد تجذبه للخلف . كان يصر هذه المرة علي أن يعرف اسمها، وحين قالت : أروى ، انفتح الباب، ولفظه بقسوة ثم انغلق. لطشه هواء بارد ، ولم يقو على التحديق فى شمس صباح خاو ، وحيثما كان يراها دائما، لم يجدها ولم يجد الحديقة. حاول الدخول لكن الباب الذى لفظه الآن كان قد أغلق .



للنهر نصيب معلوم من الأطفال كل عام، يقتنصه عنوة ، رغم كل الاحتياطات والتدابير. يعرف الجميع ذلك .

يتكرر المشهد كل عام، بحذافيره ، كأنما الدنيا لا تتغير، «يا لهوى»! تخبط الأكف الصدور بلهفة ، وتعلو النداءات . يتم البحث فى محيط الدور والأسطح والشوارع، وينتشر الرجال والأطفال والنساء على الشاطىء يفتشون فى مياه النهر المتسع.

كان الوقت مغربا حين وقف على محمود فى طرح النهر، يغمره الماء حتى صدره ، ينقذ كيزان الذرة فى طشت عائم قبل أن تغمرها المياه، حين التفت الى أروى التى كانت واقفة على حجر كبير فلم يجدها. كيف أظلمت الدنيا فجأة ، وسيطرت كائنات النهر على الوضع حتى بدا صراخه ضعيفا؟ خرج الناس من حارة الدهشان والشدية بالمشاعل وكلوبات الجاز ، يحدقون فى الماء ويخوضون بين عيدان البوص والذرة، يبحثون عن أروى بفستان أبيض وفيونكة حمراء، فى الخامسة ، غافل النهر أباها وخطفها. اندفع الصيادون بقواربهم الصغيرة إلى وسط النهر. قضوا الليل فى الماء، يعلو ضجيجهم كلما رأوا شيئا طافيا، أعادوا البحث - حين شقشق النهار- بين البوص وجذور الأشجار ، وتسلق آخرون كوبرى القطار ، مدلين برءوسهم فى الماء العكر، محدقين فى العمق، ووقف آخرون على كوبرى كفر الجزار والتحموا على الشواطىء بأهالى وروزة ودملو وميت الحوفيين وميت برة ، وكلما استخرجت جثة تدافعوا للتعرف عليها .

هل يسير الموج بجثة أكثر من خمسة وعشرين كيلو فى ليلة واحدة؟ وقف

البعض على كوبرى ميت غمر فى انتظار مرور أى جثة، مقررين العودة لعدم الجدوى من البحث خلف كوبرى ميت غمر وحتى كوبرى المنصورة .

انحسر النهر، وتخلف عن الفيضان غرين وطمي، ورقدت مشلولة عيدان الذرة من غمر المياه ، ومرغت فى الطين أعواد البوص والقصب الأحمر . زالت الرهبة فخاض الناس فى الطمي، ووصلت أرجلهم الى حافته ، فحدقوا فى مجراه الحقيقى. عاودوا البحث فى البيوت ، بين الأسرة وعند الجيران، وعاود المنادون النداء . لم ترد أروى، فتيقن الجميع أن البنت ذات الفستان الأبيض والفيونكة الحمراء كانت منذورة للنهر .

للنهر نصيب معلوم من العيال ، يبلعه كل عام عنوة ، مهما كانت الاحتياطات والتدابير . يعرف الجميع ذلك . لكن محمد البيه جلس على المجرى الحقيقى ، وعمل وفقا مخمسا بآية «وانكحوهن بإذن أهلهن» ثم علقه على سبية الرمان ، وأطلق بخور الند واللدان العنبرى ، وتلا آيات الزجر ، وأخرج ملوك وخدام الآية الشريفة ، ثم أقسم على الملوك السبعة المقدسين بين يدى رب العالمين ، أن ينزلوا أرواحهم العلوية ، الموكلة بخدمة الملوك السبعة العلوية ، لينزلوا على السبعة ملوك الفلكية، فتنزل السبعة الفلكية على السبعة الهوائية ، والهوائية على الرياحية ، والرياحية على الغمامية ، والغمامية على السحابية ، والسحابية على النارية ، فالسحرية على الترابية ، فالأرضية فالمائية فالقرارية فالغواصة ، وأن ينزل السبعة الغواصة على من تمرد وعصا وطغى من جنود إبليس أجمعين ، فيأخذوا بنواصيهم وبأفواههم مسرعين طائعين ، بالله الذى لا إله إلا هو ، نور على نور ، عزيمة على كل مارد عنيد ، وشيطان مريد ، من ملوك الجن والشياطين والأبالسة . ألا تعلوا عليّ وأتونى مسلمين . ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا . ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا . ووكل خدام القسم بأن يحضروا أروى بنت سكينة ، إن كانت مختطفة ، وإلغاء قرانها إن كانت متزوجة من ملوك الجن ، وأن يخبروه عن مكانها حتى ولو كانت فى بطون الأسماك .

- أنت فى المرحلة الأولى.

بدأت الرحلة إذن ، فكم مرحلة عليها أن تمر خلال هذا النفق المظلم، هل يجدى إغماض العينين ؟ أى المراحل ستنسى وأيها ستعلق بالذاكرة ؟ فى هذا النفق لقيت نهلة وعزيزة حتفهما ، فهل ترجوه أن يأخذ باله منها ، وأن يولدها بالراحة . هل تصارحه بمخاوفها أم تصمت ؟ عيناه تطمئنانها ، وليس غيره هنا سوى نخيل يملأ الشباك بسباطات حمر ، وسماء زرقاء ، وقرص شمس وهواء خريفى . أغلقت الزجاج . كأنها ممدة على سرير تحت السماء ، بعيدة عن صخب الشارع ، كأنها تطوف فى الفضاء . استعادت كلمات نعمات الملط وهى تشير أن تصعد لأنه فوق ، ينتظرها . تتمدد بصة نعمات وإصبعها الذى أشار لأعلى ، فترفعها كريشة فى الهواء .

لماذا جاءت هنا ؟ كانت ترجح الولادة بالمستشفى كلما تذكرت نهلة وعزيزة . أتكون نهاية الرحلة هنا ؟ حاولت أن تتجنب رؤية عزيزة الصغيرة التى ولدت فى مثل هذا اليوم ، فرأتها مرتين ، وكانت بالأسبوع تغيب عنها ولا تراها . والأجنة الصغيرة كعصافير ملونة لم تعد تأتيها فى الحلم متشبثة بعنقودها وتنقره بمناقيرها ، فهل تجتث الشجرة أم تنبت براعمها وتزدهر ؟ وماذا سيأخذ الآتى منها وماذا سيدع ؟ استدارة الوجه ؟ أم العيون التى تحلم ولا تواصل التحديق ؟ لمعة التوقد والحيوية أم النزق ؟ تتغلب على ما تراه فى الأحلام والكوابيس بأن تترك فى كل مكان شيئا منها . تخرج

الصور من الألبوم . تكتب التاريخ فى الخلف واسمها، وأكبر قدر من الوصف لمكان اللقطة ، ثم تضعها فى أماكن بارزة ولافتة . هل تفيد الكتابة على الجدران ؟ حتى هذه فعلتها ، رغم إدراكها أن كل هذه وسائل العابرين. قررت أن تستسلم . موتة واحدة أم موتتان ؟

تناهت إليها رائحة برتقال ينضج ، هل جاء راشد ؟ ثمة أحاديث بالخارج. منتشية قامت من السرير ، خرجت إلى الصالة بخفة ، فداهمتها الرائحة . دفعت الباب وتلفتت فى أرجاء المكتب :

- مع من كنت تتكلم ؟

فتح عينيه فى دهشة كأنه ارتبك . جلّدها بنظرة مندهشة وصامتة . أدركت على الفور أنها اقتحمت حجرة مغلقة ، وألقت سؤالا بطريقة فجة . اعتذرت وهى ترجع بظهرها للخلف وتغلق الباب :

- تخيلت أن راشد جاء وأنك تكلمه .

عاوده الإحساس بأن وجودها فى العيادة سيحد من حريته . أنقذها من ارتباكها وهى تتقهقر أمام نظرته الصامتة:

- لا أحد .

وقعت عيناها على كوبين من الشاى، على مكتبه ، فصرخت كطفل صدق حدسه ، وأشارت إلى الشاى وقد بدت أكثر تماسكا ومكرا وهى تفتح الباب مرة أخرى وتبتسم :

- هذا الشاى لى إذن ؟

- نعم ....

جلست أمامه . قالت وهى تأخذ الكوب إنها كانت تستطيع أن تعده بنفسها مادامت نازك غير موجودة ، خاصة وأنها كانت فى حاجة إلى هذا الشاى الآن . كان كلامها ودودا كأنها تعتذر عن دفعها الباب بطريقة فجة ، وكان هو يشم خليطا من رائحة العود والصندل والمسك ، وتتطاير فى الحجرة أبخرة لزيوت عطرية . استشعر فى بقية الكوب طعم الزنجبيل بينما

كان وجهها الطفولى يحتل المشهد ، وتبدو رقبتها كأنما ينقصها بالفعل عقد من لؤلؤ . تدفعه بكلامها اللطيف نحو مساحة رحبة من الهدوء والسماحة ، فيبدو كأنه ألتقى بها فعلا فى أزمنة سحيقة . كانت تشرب ، فتتوارى فى الخلفية نهلة عبدالواحد وعزيزة السيد ، وتختفى تماما متاعب المهنة ، ومناوشات الدايات وحلاقى الصحة ، ووصفات الأهل والعجائز الشعبية . تشرب فيتلاشى القلق من مجئ الحالة متأخرة عن موعدها أو مبكرة جدا ، ولا يشغله هاجس الأمراض المصاحبة للحمل ، الظاهرة أو الدفينة التى لا يمكنه اكتشافها ، وتعاوده أسئلة أخرى : لماذا لم ير الدرويش – ولو لمرة واحدة – ساكنا ؟ بل سائرا بعربته وبنفس السرعة ، لا يسقط من مطبات أو ملفات ، ولا حتى يختل توازنه أو إيقاعه . وما الذى يجعل كل الحالات التى بها مشاكل تتساءل إن كانت موتة واحدة أم موتتان قبل أن تصر علي البقاء ؟

أصرت نهلة عبدالواحد – بالرغم من النزيف – ألا تذهب إلى المستشفى، رغم اتصالها خمس مرات فى يومين ولا تجده ، لا فى البيت ولا فى العيادة . إجهاض فى شهرين ، وحين وصل متأخرا حتى عن موعده ، كانت هنا فى هذه الصالة تضحك بين نوبات الألم أسفل البطن ، وبدت متعبة وهى تهم بالدخول قبله إلى حجرة المكتب كأن شيئا سيسقط منها :

– وراك وراك .. هتروح مني فين ؟

لم يعرف أن المريضات اللاتى كن بالصالة تنازلن لها عن دورهن ، والرجل الذى انتظره لأكثر من ساعتين لم يمانع أن يظل ساعة أخرى كى يذهب معه ليكشف على زوجته . لم يعرف أن التى انتظرته يومين ، رتبت كل شئ حتى تدخل ، ستمضى معظم الوقت فى الاستفسار عن كيفية الفحص ، متنقلة بين الخجل والدهشة والخوف وهى تجذب هدومها لتحت ، أو أن باله سيطول إلى هذه الدرجة البعيدة دون أن ينفد صبره :

– انت هتكشف إزاى ؟

– زى الناس .

– يا لهوى يا ماما !

شئ ما غير انتظارها له يومين كاملين ، ووجهها الأسمر الشاحب الجميل أسفل شعرها المقصوص، دفعه لأن يطيل باله ، ففى هذه المدينة كلها لا يوجد سوى نهلتين اثنتين ، دلوعتين وسمراوين بشعر مقصوص «ألا جرسون» ، رقيقتين كالبسكويت ، خفيفتى الظل ، تضحكان طوب الأرض ، لكنه اكتشف الآن أنهما خدعتاه ، لتعذر الكشف عليهن . نهلتان كأنهما توأم، أو صورة فى مرآة . لم تصدق أن تكون هناك نهلة أخرى تشبهها ، وحين قال : نهلة عبدالواحد ونهلة السعيد، صرخت : صحيح يا ماما ، وضحكت . أضاف أن هذه الرقة مستحبة فى كل شئ إلا الكشف ، وطلب منها أن تتماسك، فلانت وقالت : حاضر . مد يده ، فاختلطت دموعها بالضحك كأنها ستشرب دواء مرا ، لكنها فتحت عينيها بدهشة ورعب نحو أصابعه التى فى القفاز ، ومدت ذراعيها تحمى أسفلها وجلست مرة أخرى وهى تسأل أمها :

– هو لازم الكشف ده يا ماما !

– أمال هيكشف إزاى يا نهلة ؟

بكت نهلة كبكاء الأطفال المرعوبين بلا دموع :

– ماليش دعوة .. ما هو أنا بسقط أهه .. لزومه إيه الكشف بقه .. يكتب علاج يرفع الدم ده وخلاص ؟

نصف ساعة حتى تقتنع نهلة عبدالواحد ببساطة الكشف ، الذى هو مجرد فحص بإصبعين لا يستغرق أكثر من دقيقة ، للتأكد من التشخيص وتقييم الحالة على نحو صحيح ، ومع ذلك ، كانت تقاوم بهلع أصابع أمها وهى ترفع الفستان الجينز ، لتظهر كتل الدم المتخثر التى تشير إلى أنه إجهاض محتم ، وهى تغمض عينيها وتكتم فمها بكفيها وتتشهد . تصنف

ساعة ، لا يدرى كيف انتقلت بحذافيرها إلى كل فم فى المدينة التى كانت فى الأصل قرية ؟

فحصها ، فتدفق الدم كشلال .

علق الجلوكوز ، وحقن أدوية انقباض الرحم ، وحشاها من أسفل بالقطن، لكن الأمور كانت تتطور بسرعة متناهية ، فامتلأ الطبق بالدم وغرقت ملابسه . نادى زوجها :

- شيل بسرعة ع المستشفى .. فى حاجة مش طبيعية .

إجهاض مركون ، مات ببطن نهلة منذ أكثر من شهرين . والحمل مدته أربعة أشهر على الأقل ، وهناك خطأ لابد فى حسابها للحمل . وموت جنين لأكثر من شهرين دون أن تدرى الأم هو ما يسبب كل هذه السيولة فى الدم . نزلوا السلالم . لا يمكن إلا أن يكون الأمر هكذا . كان النزيف شديدا ومباغتا . لم يسمح حتى لأن يعتذر للمريضات فى الصالة ، أو للرجل المنتظر لأكثر من ساعتين . كان الوقت ضيقا فلم يجب حتى عن أسئلة نهلة أو زوجها . كان لابد أن ينقلها بنفسه ولا يتركها لأهلها حتى لا تموت فى الطريق ، إن لم تمت وهم يتفاوضون كيف يتصرفون .

اجتاز الاستقبال وأخذ المصعد إلى العمليات . سرد لزملائه ما حدث باختصار ، ونهلة تلتفت بإعياء تحاول أن تتبين من كلماتهم السريعة تفسيرا لما يحدث . فتحت بطنها لاستكشاف سبب النزيف ومن ثم وقفه، بربط شريانى الرحم إلى أو حتى استئصاله ، وتعويض النزيف بقربتين من الدم . شتم الممرضات اللاتى مشين لبنك الدم ببطء ، وغدن بعد فترة، وقلن إنه لا يوجد دم . أغلب الظن أنه لم يجد وقتا لشتمهن ، فأخذ التذكرة وعينة من دم نهلة وجرى حتى باب المستشفى ، عبر الطريق وصعد بنك الدم . أغلب الظن أنه دفع الممرضة التى كانت قد تهيأت للنوم ، ثم دفع الباب ، وفتح الثلاجة ، وأخذ قربتين لمريضة أخرى ستجرى لها جراحة باكر ، وأغلب الظن أنه لم يكن هناك وقت ليقول للممرضة التى تزعق كمجنونة حتى وهو يهرول هابطا

السلم : إن التى تموت فى العمليات أولى بالقربتين من التى ستعمل بكرة ، ولأنهما لم تكفيا نهلة ، كان يجرى بسيارته ، معه أهلها وأقاربها الذين توافدوا إلى بنك الدم الرئيسى وبنك الجامعة ، ليتخطى بطء ممرضات بلهاوات يعقن امرأة تموت عن الحياة بإصرارهن على استكمال إجراءات شكلية ، لكتابة اسم المتبرع على كل قربة ، وملء خانات الدفاتر. كان يجذب بنفسه الدم على مسئوليته ، ويجرى للعمليات فى المستشفى الأميرى .

صارت تسيطر عليه إثر كل حالة وفاة هذه الأسئلة : لماذا مررت اليوم من هذا الشارع وتركت هذا ؟ أكان لابد من العودة إلى بيتى فى هذا التوقيت ؟ لو أتيح له أن يعلم ما يخبئه الغيب من مجهول ، لسلك البديل ، أو تأخر قليلا ، ليتفادى هذه المصائب ؟

جاء إلى العيادة من طريق البحر ، فوجد أمامه برهم بائع الجيلاتى ، يخب بذهول وقد سأل عنه ولم يجده . فانحرف بسرعة فى شارع الكوبرى ، اندفع الذين رأوه خلف برهم ليخبروه أن الطبيب جاء ، لكنه كان قد أوقف سيارة واتجه بزوجته إلى المستشفى . واصطدم به صدفة محمود الأعرج وكان يبحث عن سيارة تنقل زوجته إلى المستشفى ، فاستنجد به : الحقنى.. مراتى ولدت وبتنزف . كانت كتل الدم المتجلط تملأ الهدوم والفراش ، فلم يتمكن من قياس الضغط . رغم أنه كان يسمع الصوات ، فحصها متشبثا ببصيص أمل ، لكنه أغلق حقيبته وخرج . فى الشارع انبثق الناس من الأبواب والشرفات التى فتحت فى ذعر لدى عودة برهم سريعا من منتصف الطريق بنفس السيارة التى أقلته وزوجته ، فلم يعد يعرف من أين ينبعث الصوات . آلت الحالتان إلى نفس المصير ، التى ذهبت إلى المستشفى والتى لم تذهب ، إلا أنه لم يعرف لماذا احتسبت عليه نفيسة زوجة محمود الأعرج ولم تحسب عليه زوجة برهم الذى كان يبحث عنه ، فيصرخ : لماذا مررت من هذا الشارع ؟ ولماذا جئت فى هذا التوقيت ؟

كان يذرع المسافة بين المكتب والشرفة جيئة وذهابا . أحست أروى أنه مشغول . أخذت الكوبين وقامت إلى حجرتها دون حتى أن يشعر . كان يطل من الشرفة ، حيث كانت وحدها نعمات جالسة على الرصيف وسط أشيائها . تعجب مرة أخرى كيف لم يرها وهو طالع هذا الصباح . استعاد ما حدث في نوبتجية الاستقبال بالمستشفى أمس ، حين سمع صياحا وجلبة . كانت تهرول وتصرخ أمام صبية يخوفونها بمصطفى علوان . يسوقونها بالعصى ويضحكون ، فيما هى تهذى محاولة الاحتماء بغرفة الصول سيد التى كانت مغلقة . فتح لها باب غرفة الاستقبال ليخبئها . بدا له عن قرب أن ذعرها الشديد لا يتناسب مع ضربهم المستهزئ ، كما أن ضربا بهذه الطريقة لم يكن ليدفعها للاختباء منهم أسفل سلة الملابس المقلوبة ، غير أنه بمجرد أن منع الأولاد عن باب الحجرة بذراعيه المفرودتين ، دخل وعدل السلة فلم يجدها .

- علام تطل من الشرفة ؟

لم ينتبه للسؤال ، فقال وهو يستدير من الشرفة مندهشاً : إن نعمات المجنونة وبعد ما يزيد على عشرين سنة يبدو أنها غيرت مكانها . وقبل أن يكمل استدارته وكلامه إلى أروى لم يجدها ، وفوجئ بشيخه واقفا خلفه ، قبل باب الشرفة بقليل ، يعاتبه :

- حتى أنت تقول إنها مجنونة .

أدهشته المفاجأة ، فأمسك بيده ليجلسه على مكتبه ، وهو يقول بمودة :

- فقدان العقل جنون ، واضطرابه مرض نفسى .

كان شيخه سيد عبدالعال مازال محدقا ، كأنه يستنكر ما يقوله . استطرد مشيرا بيده إلى البعيد بنغمة مقنعة :

- نعمات مجنونة يا شيخ سيد .. أودعت أكثر من مرة مستشفى النفسية .

– ولماذا لم تشف إذا كانت مجنونة أو مريضة ؟

فاجأه السؤال ، وبينما كان سيرد بأن كل الحالات المزمنة لا تخف غالبا، فاجأه بسؤال آخر :

– ثم من قال إنها تكون فى المستشفى ؟

– رأيت بعينى أكثر من مرة شرطة النجدة تسلمها بخطاب رسمى للمستشفى الذى يحجزها مدة ثم تخرج .

– نعم .. لكن هل تكون نعمات فى المستشفى هذه المدة ؟

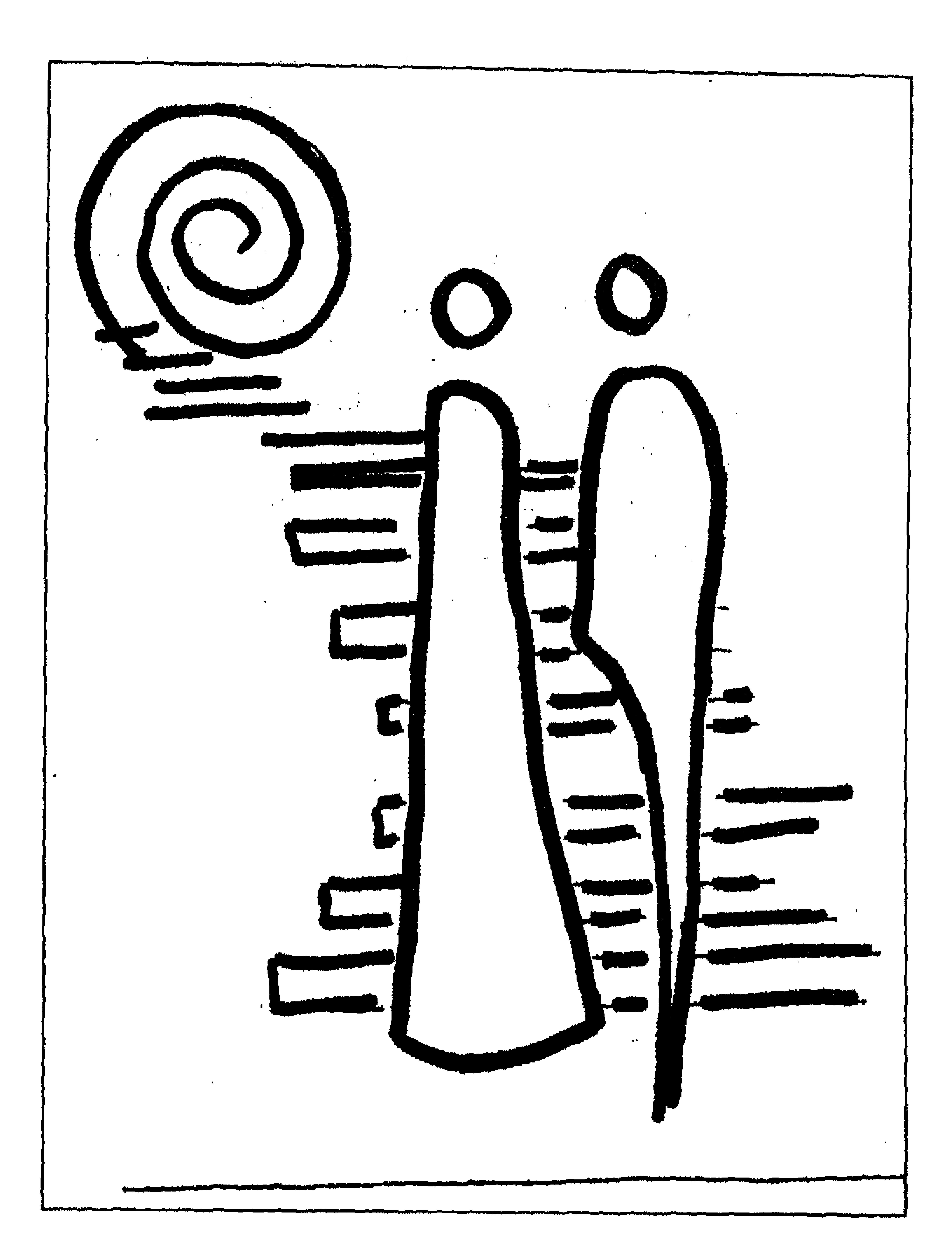
– أين تكون إذن ؟

كعادته حين يحجم فجأة عن جواب بعض الأسئلة ، إما لبساطتها الشديدة ، أو لصعوبتها الشديدة حينما لا تتيح الظروف فهمها ، يعرف ذلك من ملامحه المستغربة أو إعراضه المفاجئ ، أو طريقة أسئلته القصيرة المتتابعة حين تنتهى دائما إلى سؤال ومأزق .

أوضح لشيخه مستعينا بيديه أن ثمة حاجزا بين الوعي واللاوعى ، يمنع المعلومات القديمة والمهملة فى اللاشعور من الاختلاط بالمعلومات والأحداث الحديثة فى الشعور ، وأن هذا الحاجز هو الذى يحافظ علينا متزنين ، إذ لا يسمح بمرور أحداث من هنا إلى هناك إلا فى نطاق بسيط فى الأحلام أثناء النوم ، أو بدرجة أكبر فى بعض مراحل التخدير الكلى ، بينما ينهار تماما هذا الحاجز فى حالات الجنون . وقد يلتئم أحيانا هذا الحاجز عند بعض المرضى بالعلاج أو بالحجز فى المصحات النفسية وقد لا يلتئم بالرغم من ذلك . متنهدا وافقه شيخه تماما فيما يقول ، لكن باعتبار ذلك من العلم المكتوب ، أما بحسب العلم غير المكتوب ، وهو الموهوب من لدن علام الغيوب، فإن نعمات ليست سوى مجذوبة تقف فى دركها الخاص ، الذى غيرته بالأمس ، والمجاذيب لا يتركون عادة دركهم الخاص إلا بالموت ، أو إذا كان

ترتيبا كبيرا سيحدث فى الباطن يستدعى تنقلاتهم . المجاذيب يولون ويعزلون ، يؤدون وظيفة منوطة بهم فى تصريف شئون دركهم ، فيمنعون ملاعيب الجان ، ويخففون ما يحل من بلايا وكوارث عن أهل دركهم ، ألا تراهم ممتلئين بالقمل والقاذورات والعاهات . المجاذيب فى الأصل محبون لم تستوعب قلوبهم الأنوار ، فانجذبوا وانفصلوا عن الواقع ، وفعلوا ما تراه شاذا . وقف شيخه ، وقبل أن يخرج أمره أن ينزل لها رغيفا ، فهى وسبعة آخرون لم يفطروا بعد ، ثم انصرف .

من الشرفة ، أسقط لها رغيفا ، وظل يراقبها . أخذت الرغيف دون أن تنظر إلى أعلى ، فأكلت نصفه وأتت كلاب سبعة مختلفة ، فقسمت بينهم نصف الرغيف سبع لقيمات ، ورمت لكل كلب لقمته . كم عاما مر دون أن ينتبه إلى الأرغفة التى بجوارها ، أو إلى الكلاب السبعة التى تتردد عليها ثلاث مرات يوميا فى ترتيب لا يختل ؟



كان عليّ الدين خادم الملك منتظرا بجوار الحصان إلى أن تنتهى الأميرة من اللعب ، وحين خلد الصبية والبنات إلى دورهم الطينية ، التفتت فلم تجده ولم تجد الحصان . لم تدر إلى متى ظلت تصرخ ، لكنها وجدته كما كان منتظرا بين الأشجار ، يتعجب :

- كيف جئت ؟

- أين الحصان ؟

- أى حصان ؟

حدقت بغضب فى وجهه مستغربة :

- البنى ذو القوائم البيضاء !

ارتبك أكثر ، وبانت الحيرة على ملامحه وهو يترك الفأس من يده :

- ألست أروى ؟

- وهل نسيت اسم أميرتك أيضا ياعليّ الدين ؟

- السماح أيتها الأميرة

- أريد العودة .

- إلى أين ؟

- إلى القصر .

عاد بها ، غير أنها لم تعد من حيث أتت . داخلتها الرهبة فأوقفته فى الطريق وأشارت :

- ما هذه الأكواخ ؟

- دورنا !

- وأين الأحصنة ؟

دمعت عيناه ، وبلغت حيرته مداها ، فقال متوسلا ألا تزعل من أجل خاطر على محمود :

- ما حكاية الأحصنة ، وما حكاية عليّ الدين هذه ؟

فقالت بزهق :

- بل ما هى حكاية على محمود هذه ؟

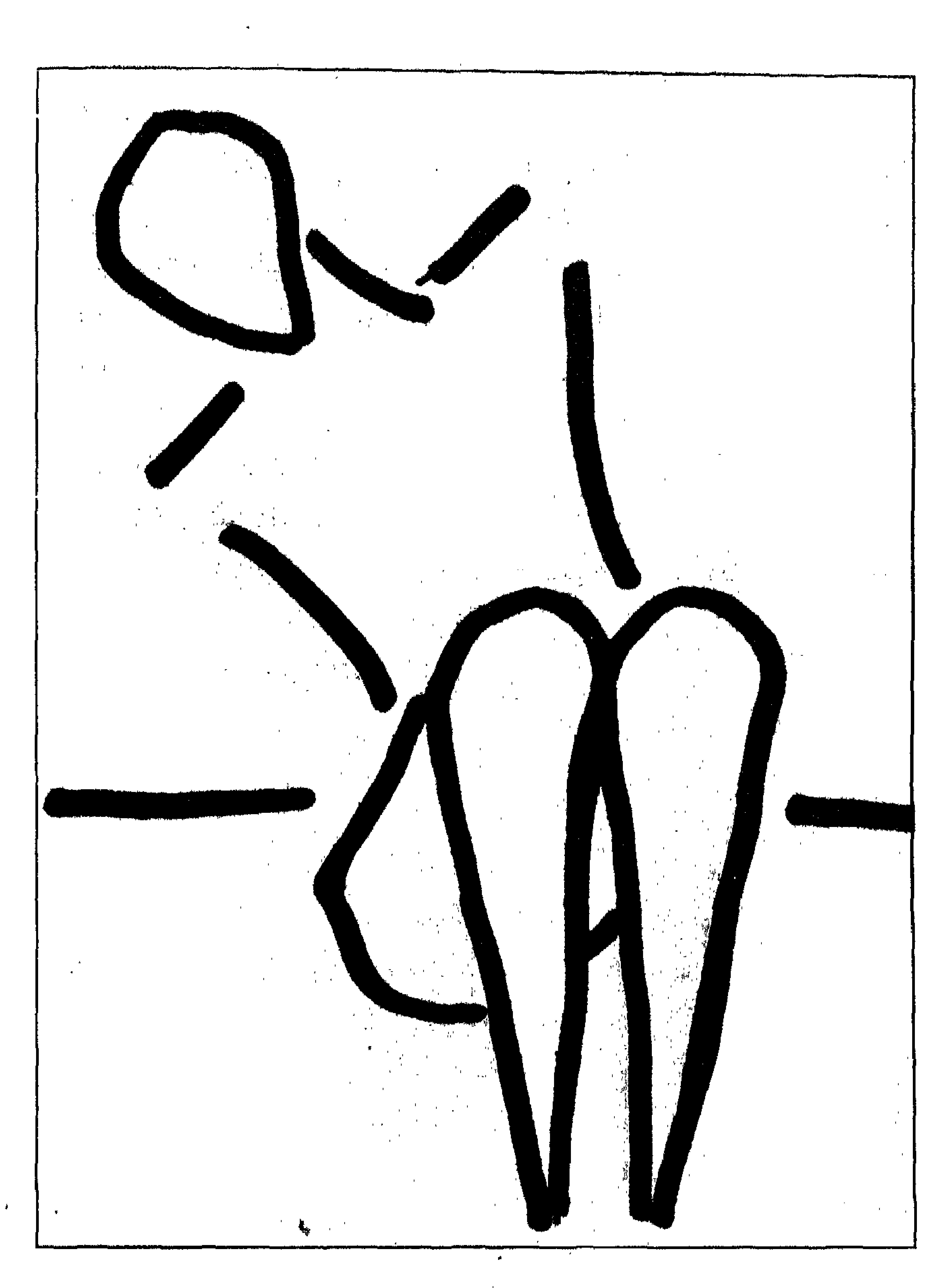
لم تعرف لعلي محمود حكاية ، فقد غافلها ومات . دهمه قطار على كوبرى الرياح التوفيقى . كأنه قصد أن يظل غامضا ، حتى على هؤلاء العجائز الذين يروون كأنما يقرأون من كتاب مفتوح ، ويحكون بسهولة منقطعة النظير ، ويردون كل شئ إلى أصله ، فالسوايدة الذين هم فى غاية الجاه بدأوا ببيع النداغة وسرحوا بالملبن ، أما الفنجرية ، فمكروه الدار ساكنها ، جاءوا من شربين يعصبون أعينهم بالمناديل ، ويسرحون بالدفوف أمام الأبواب وقد علقوا الأخراج بأكتافهم وأنشدوا المدائح النبوية ، ثم عملوا مسحراتية وطبالين ثم أصبحوا ملاكا لهذه الأبراج على الكورنيش وعند النفق وأمام محطة القطار . والملايجة فى الأصل ساسة للخيول ، والبوهية بدأوا عبيدا عند محمد أفندى علوان ، ثم أخذهم ابنه مصطفى أنفارا بعد ذلك فى مصنع الطوب ، ولا يمكن لذريتهما الكبيرة أن تحول دون نسيان أصولهما المنتهية إلى مليج منوفية . حتى الهراوى الذى ورَّث ذريته - إلى جوار الحلاقة - العيون الخضر والبشرة البيضاء واللت والعجن فى الكلام عمال على بطال ، واقتناء النساء ، لم يختلفوا على أن بذرته نبتت فى كفر محمود منوفية . أما الدهاشنة فالعدد فى الليمون ، والعكايشة فعديمو الأصل كخبز القرافة كل واحد من شكل ،

والحبايشة فتنابلة لا ينجزون شيئا، وإلى أن تتكحل العورة يكون السوق قد خرب.

عند علي محمود، والكلام يتجمد على ألسنة العجائز، يصيبهم البكم، لا أحد ينفي ولا أحد يؤكد. كأنه لم يكن. على محمود هكذا، لاجد ولا أعمام ولا أخوة. ما إن تقترب من الموضوع، ولو دون قصد، حتى تمط الأم بوزها وتمتعض، ويتساءل خالها عن الداعي لنبش الماضي.

أحضرت الكتب، وقرأت بنهم، شغوفة بحكايات الماضى، عن الهزة التى أصابت العائلات فى البلاد المصرية، إبان حفر القناة، فتبدلت مواطنها، وتفرق الأخوة وتقطعت بينهم السبل، هروبا من السخرة، والموت الحتمي وبطش السلطة. حتى الحكايات الشعبية لم تغفل تقصيها وتأويلها وفهمها.

لكنها كانت ترتطم دائما بجدار مصمت.



- لسه حد بيقراها؟

كأنه لا يكلمه. لم ينظر نحوه. يرتب الجرائد. يخرج الكتب من الكشك ويرصها على فرشة الكتب. يناول الزبائن جرائدهم باليد التى بها النقود الورقية، ويعطيهم الباقى من علبة نعناع فارغة عملة معدنية دون مراجعة كأنما يوزع صدقة. تتنقل عيناه بشكل خاطف بين أذرع متداخلة بنقود من فئات مختلفة، خلفها وجوه متزاحمة ومتعجلة: مسائى ياحسنى! أخبار! جمهورية! مسا.. لسه! وفد.. خلص!

كانت ذراع راشد ممدودة بالنقود ما تزال، وهو ينطق فى الزحام بضجر اسم جريدته، حتى خيل إليه من نظرة حسنى الجادة والمركزة أنه يقصده. كانت نظرات الواقفين ذوى الأذرع الممتدة تشى أيضا بأن النبرة الخاطفة والمتسائلة والمستنكرة موجهة إليه، فهل كان فى طلبه لهذه الجريدة ما يدعو للغرابة؟

- لسه حد بيقراها يا أستاذ؟

نطقها حسنى هذه المرة وهو يضغط حروفها بأسنانه، متعجبا بيده التى بها النقود الورقية والأخرى التى بها جريدة يومية فى اتجاهها إلى ذراع ممتدة، حتى التفت المتزاحمون نحوه باستغراب، فهبطت ذراعه وخرج تلقائيا من الزحام. هل غاب طويلا؟ أم أغلقت الجريدة؟

خذله الرد المفاجىء، كمن يسأل عن صديق أوحشه، فيفاجأ بأنه مات منذ

فترة طويلة، وأنه وحده الذى لا يعلم. خاف أن يسأل عن أبيه أو عن زوجته أروى، فيصطدم بشىء مفاجىء. انتابه الحزن لغياب جريدته التى أدخلته ذات يوم عوالم ساحرة، فعرف أمل دنقل وتوقف طويلا أمام «لا تصالح، وأقوال جديدة عن حرب البسوس» وأحب من خلالها نجيب سرور، وسعد الله ونوس، وميخائيل رومان، ونجم والشيخ إمام ومحمد منير ومحمد حمام، وسمع لأول مرة عن لومومبا وجيفارا، واسبارتكوس. من خلالها كانت البداية. كان مغمضا ففتحت عينيه على مسرح الغرفة، ثم مسرح السلام، ومتحف الفن الحديث. نبهته مبكرا إلى أنه إزاء واقع بكر لكنه متخلف وراكد، يرتع فيه كطحلب مجاذيب وسحرة. بعد ذلك ذهب وحده، وبمحض إرادته، وطلب أن ينضم إليهم، ليحرك هذا السكون، ويهيل التراب بقسوة على كل ما يعوق أو يناقض طموحه الجارف نحو التقدم، ونحو الغد المشرق، ونحو الكرامة والعزة. كان شغوفا بحماسهم، وانتشارهم بين العمال والطلاب، وتمردهم الدائم على الواقع ، وكراهيتهم للعدو، غير أنه تساءل عن بذورهم: لماذا لم تنبت كما كان يتوقع فى هذه التربة؟ وهل كان المعتقد الدينى الراسخ والمتغلغل وحده الذى حال دون نمو هذه النبتة وترعرعها؟ أين يكمن الخطأ؟ فى البذرة أم فى التربة أم فيمن قاموا بزراعتها ورعايتها؟

كانت الضجة قد خفتت عن حسنى الذى ناداه، وقال له إنها لم تعد تجىء منذ فترة، لأن أحدا لم يعد يطلبها. هز رأسه فى أسف وأخذ يقلب فى الجرائد الموجودة، يومية وأسبوعية وحزبية ومستقلة، يقرأ شعاراتها. تجول فى المجلات الفنية والثقافية. تفقد عناوين الكتب الكثيرة المفروشة متعجبا من انتشار هذه العناوين الغريبة على هذا النحو. أتكون العودة إلي النقيض بذلك العنف؟ كان على حق إذن حين صارح رؤساءه فى التنظيم، بانزعاجه

من نظرتهم إلى الدين، وطالبهم بدافع المحبة والغيرة أن يبحثوا عن منطقة للالتقاء، وأن يحوروا فكرهم ليتواءم وطبيعة مجتمع ريفى بسيط يعرفه، يؤمن أكثر بالآخرة، ويفضل - إن كان ثمة خسارة لابد منها - أن تكون فى الدنيا. ريفيون بهذا الشكل كانوا جديرين فى رأيه بأن يتحور أى مذهب ليناسبهم. تساءل:

- أيهما أكثر مرونة، تطويع النظرية أم تطويع المجتمع؟

اقتنع أكثر أنهم يراهنون على المجتمعات العمالية حين رآهم أقل مرونة تجاه التجمعات الريفية، وحين تأكد له أن التجربة التى ينقلون عنها لم تعتمد فى الأصل على الفلاحين كما اعتمدت على العمال، فتيقن أنه لن يحدث التقاء، بل حدث التنافر، فلم يكن لدى أهله الريفيين ما يضطرهم لأن يقبلوا المذهب هكذا.

اختار جريدة يومية. قرأ تاريخ اليوم قبل أن يتصفح أوراقها، استغرب حين طالعته من بين الصفحات أسماء ذات تاريخ نضالى وفكرى بارز، كانت مقالاتهم وجبة أساسية فى جريدته المفضلة. عاد إلى الصفحة الأولى ليتأكد من اسم الجريدة والتاريخ، ثم فر الصفحات الداخلية، وتوقف طويلا أمام أسماء أولئك الذين كانوا يغالون فى التشدد، ويعتبرون أن المذهب مطروح، يؤخذ كله أو يترك كله، ولا مجال من ثم لمذهب توفيقى يرضى أطفال اليسار وضعفاءهم.

ظل واقفا بين أقرانه فى التنظيم، وأولئك الريفيين البسطاء.. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. لم يتقبل أفكارهم الجامحة كاملة، وإن تزعزع يقينه، وتسرب الشك إليه من المسلمات. فى منتصف المسافة تماما - تلك المنطقة الوهمية

التى كان يحاول الثبات عليها دون انزلاق - نجا من القتل بأعجوبة، وأفاق على فقرتين محطمتين وذاكرة مشوشة، ليشهد فى الجريدة اليومية التى فى يده، والتى لم تتزحزح قيد أنملة باتجاه مذهبهم، كيف ركب المتشددون باقتدار آخر موجة قبل أن يغرقوا.

لعمارة أندراوز شهرة ميدان، لا يخطئها أحد فى المدينة أو القرى المحيطة. من عندها يمكن الوصول لأى منطقة فى المدينة، فليس على المرء سوى أن يقف بجوارها، ثم يحدد الاتجاه الذى سيسلكه كما وصف له، كى يصل إلى هدفه مهما بعد، طالما كانت عمارة أندراوز نقطة الانطلاق. يأتيها مرضى المدينة بالحناطير، والقرويون على الدواب. يرافقهم مرشدون ومتطوعون كانوا فى الأصل مرضى ثم خفوا على يديه، يتطلعون بوجوههم إلى الأدوار العليا، يتفحصون لافتة غير مرئية لأندراوز حال لونها، على شرفة مترية لم تنفتح أبدا، قبل أن يصعدوا ثلاثة سلالم فى الذاكرة حتى العيادة بالدور الثالث، فيما لا ينتبهون للافتته الكبيرة على نفس الشرفة، كأنها لافتة وهمية، بل يطلقون عليها عمارة أندراوز. كبير أطباء المستشفى الأميرى. طبيب المركز. ترخيص رقم ٦. حكومة الملك المعظم. إذا كانت الشمس وعوامل التعرية محت اللافتة، فمن أين قرأ هذه الديباجة؟ أيكون هو الدكتور الذى فى عيادة أندراوز، ويتحقق الحلم الذى قصه على أبيه منذ ثلاث وعشرين سنة، وينجح فى العثور على ورثة الورثة، ليوقعوا له العقد ويضيفوا إليها حجرة ثالثة كان أندراوز يستريح فيها ويتناول غداءه، فيخصصها للولادة.

فى طريقه إلى ورثة أندراوز بالضاهر، مسترشدا بفكرة حسين عبدالوهاب الدولة ومعلوماته عن أندراوز التى كان يأخذها منه فى طريقه

بالحنطور من المحطة حتى العيادة، وانتظاره بالحنطور حتى ينزل عواد التمرجى ليحمل الحقيبة، كان يزيل العنكبوت والغبار عن العمارة التى يرجع طرازها إلى أواخر القرن التاسع عشر، ويدهن فى ذهنه حوائطها، ويعيد أيقوناتها وأسودها البارزة إلى الواجهة، ويستكمل فى رأسه حلياتها الجميلة ومقرنصاتها المتهدمة، فتبدو شاهقة وقديمة. رافقه حسين الدولة، منتهزا الفرصة فيما لو نجحت الصفقة أن يدفع إليه بابنته نازك لتعمل معه ممرضة. فى مدخل كوبرى الرياح التوفيقى، أطل حسين بجسمه من الزجاج المفتوح وسب أبا أم الدرويش ابن القحبة حين زنق سيارة الدكتور، واحتك بجانبها الأمامى دون أن يتوقف أو يلتفت، وهو يتطوح والدف فى يده والعرق ينثال من جسمه. فى إشارة مرور غمرة، وبينما كان يعدد مزايا ابنته نازك الشاطرة والتى تقرأ وتكتب، صرخ حسين فجأة حين رأى الدرويش مارقا بالكارو والولد باللجام والدف فى يده. كان الدرويش غارقا فى عرقه كأنه صاعد من نهر. صرخ حسين الدولة ثم سكت تماما، وظل مبحلقا بعينيه يخبط كفا بكف ولا ينطق كأنه أخرس.

كانت العمارة من أربعة طوابق، أربعة أمتار ونصف للطابق، تطل بشبابيك مستطيلة وشرفات صغيرة على مركز الشرطة وعمر أفندى من جهة، وعلى الإعدادية القديمة من جهة ثانية، وعلى النيل ومحلج العطار من الجهة الثالثة. هنا كان أندراوز يناوش الفلاحين حين يراهم ينتعلون البلغ والكنادر وقد توارت قليلاً الشقوق من أقدامهم، فيذكرهم بأيام الكوليرا وأيام البودرة:

– إوعى يافلاح منك له عشان ما نضفتوا شوية ولبستوا ساعات وخلعتوا الطواقى الليف تكونوا نسيتوا البودرة والبخاخة؟

يحبون الحكيم أندراوز أبا عن جد. يخرجون من عنده أصحاء كأن لم يكن بهم مرض، يُنزلون من عنده وهم يرددون مناوشاته ووصاياه، كأنهم تركوا المرض عند أندراوز، الذى أراد أن يرحمهم من البلهارسيا، فوزع

عليهم أحذية برقاب طويلة يستخدمونها فى الرى، غير أنه ظل يصرخ فى شرفته حين رآهم يرتدونها فى مشاويرهم إلى المدينة وقد قصوا رقابها، بينما ظلوا ينزلون حقولهم كما اعتادوا حفاة، إلى أن مات معترفا بأن الذى هزمه لم يكن سوى هذه القرى المتناثرة كَرُبًى صغيرة بين المزارع الفسيحة بلونها المترب ومآذنها الصغيرة، لا تربطها غير مدقات عليها دواب بطيئة وسائرون مطمئنون. تلك القرى التى كانت تلوح له داكنة من شرفته، كأنها نبتت هى الأخرى من الأرض، قبل أن تضعف عيناه، وقبل أن تحجبها عنه العمارت العالية، فلم يعد لفتح الشرفة معنى.

وقع العقد من ورثة الورثة. أبناء أخت أندراوز وإخوته الثلاثة. عرف حسين أصغرهم، إذ كان أحد الذين أنزلوا أندراوز فى مثواه الأخير، فى ترب المدينة. تذكره حسين، وقال الرجل: إنها كانت المرة الأولى والأخيرة التى ذهب فيها إلى الأرياف، والدنيا تغيرت لاشك . وليس من المعلومات التى استقاها حسين أو أبوه أو جده حسين الدولة، إنما من أرميا ابن أخته علما - حسين والطبيب - أن خاله أندراوز لم يتزوج، وأنه ظل يبيت لخمسين عاما مع أمه، ولما ماتت ظل وحده، تزوره أخته فى هذا المنزل الأثرى فى الضاهر، والذى آل بالضرورة إلى أخته وأولادها. كانوا لا يعلمون شيئا عن أندراوز، وكانوا عمليين بما يكفى لأن يأخذوا مقدم الإيجار، وأن يتفقوا جميعا على أن يصلهم الإيجار شهريا، وحين عرض عليهم فكرة الحجرة المغلقة، لم يكن لديهم علم، فأضافوها إلى العقد فى بند خاص ورفعوا الإيجار.

أضاعت نازك العيادة، فبدت العمارة كما رآها تماما فى الحلم. حتى الحجرة المغلقة والتى أمام سطوة أندراوز أجَّل فتحها أكثر من مرة. كان يخيل إليه أنه سيجده راقدا بالداخل ممددا، ينظر إليه حالما يفتح الباب، ليسأله بحسم إن كانت لديه القدرة أن يفعل فى هذا المكان لخمسين عاما أخرى مثلما فعل، وراوده هاجس بأنها حجرة تسكنها الأشباح بعد أن

رفض حسين عبدالوهاب أن يفتح حجرة مغلقة لم يدخلها أحد سوى أندراوز، حتى عواد التمرجي، فتح الحجرة فرآها كما في الحلم، سرير مرتب كأنه بانتظار أندراوز ليرقد فيه، أو كأنه نهض لتوه منه، بجواره مكتب صغير عليه مصباح بقاعدة وكتب ومراجع مرتبة بعناية ونظارة للقراءة ومقلمة، وفي الجانب الآخر مائدة صغيرة بكرسي واحد وطبقان وسكين وشوكة وملعقة وفوطة، تحتها سجلات مرصوصة لمرضاه، ولم يكن على الجدران سوى مشجب بدون ملابس.

لم تكن نازك حريصة وهي تنفض الغبار عن الشبابيك، فتقافز صدرها المثقل إلى أعلى وإلى أسفل خلف ثوبها القديم دون أن تعي. كان في حركته البندولية حين تنحني أو تشب على أصابعها وترمي بجسدها على الشباك لتطول المناطق العالية، يلح في تذكيره بصدر عائشة. تملكه القلق، فخرج إلى بسطة السلم وهو يأمرها بأن تنفض العيادة بعد ذلك قبل مجيئه، وينفض الغبار عن أنفه كأنه يختنق. فتحت الشباك فتدفق الهواء البحري. شبابيك للتهوية وأخرى للإضاءة، تفوق لمبات الكهرباء البائسة بأسلاكها البارزة خارج الحائط وبقع الجبس المبرقشة. وكما لم تكن العيادة بحاجة إلى إضاءة حين تفتح الشبابيك، فإنه لم تكن هناك حاجة أيضا إلى لافتة لن يقرأها الناس رغم كبرها على الشرفة، فيما يقرأون لافتة أندراوز التي محيت. فقد فتحت عيادة أندراوز مرة أخرى، ليس مهما اسم من الذي فتحها، وكما أطلقوا على العمارة كلها عمارة أندراوز، ظلوا لسبع سنوات يقولون عنه: الدكتور الذي في عيادة أندراوز، ولسبع سنوات ظلت نازك حسين تجلس في الصالة الواسعة خلف المكتب الصغير - بصدرها الذي لا يذكره بعائشة إلا عندما تنفض الغبار - تستقبل المريضات وتدخلهن إليه في حجرة الكشف.

قبل نهاية المنحدر، أنهك الحصان، وبرك كما تبرك الجمال.

لم تتصور أن تجرى الأمور بهذه السرعة، فينزل الغريب عن حصانه، وتنهرها زوجة خالها فتبتعد لتراقب الغريب وهو يهمس فى أذن خالها متوددا، ويرد خالها بهذه السرعة:

– نجهزها ونوصلها لحد عندك.

كانت تتطلع بحب وسط بنات خالها الخمس إلى حصان الغريب البنى الواقف وحده أما الفناء، وحين وضع الفنجان فارغا وشدد على خالها فى ود:

– طلباتك.

فكرر خالها وهو يتنهد كمن ألقى حملا ثقيلا عن كاهله:

– لا شىء.. ألبسها وأوصلها لحد عندك.

فانتتر الحصان وقال الغريب:

– نريدها كما هى.

فضحك خالها مقدرا وقال:

– إذن قومى مع عمك يا أروى.

كان الحصان يعبث بفمه فى الحشائش ويهز أذنيه حين قالت بفرح:

– هل آن الأوان؟

– آن.

امتطت خلفه صهوة الحصان، فانفرد الطريق منحدرا وملتويا وسط مرتفعات من أشجار برتقال وليمون ونارنج وسرو، ولاح القصر فى آخر الأفق ، بسوره الضخم العتيق، بأبراجه العشرة وأبوابه السبعة. سار الحصان ولم يغادر الوقت الضحى، والقصر يقترب ويختفى مع التواءات الطريق. رأت بوابة أروى سدت بالطوب منذ خرجت منها فلم يجتازها أحد بعدها. باب كبير أعلاه برجان وسارية عليها - ماتزال - التفاحات الذهبية الثلاث تخطف الأبصار كلما سطعت عليها شمس الضحى. خلف السور يطل القصر مشرقا ومنيرا، بعقوده وسقوفه وأعمدته الرخامية وأفنيته وقبابه الفخمة. نظرت خلفها فرأت الطرق المتدرجة بين الأشجار، وبدا أنهما فى قمة الربوة، حين رأت النهر صغيرا وبعيدا ورأت الدرجات الحجرية الثلاثمائة وخسمة وستين تنزل إليه حيث الحمامات الملكية بأربعة عقود متكاملة فى صفين، يظللها سقف مقبى ذو ثلاث «بواكى» تتخلله كوات للنور، حيث يدفع النهر الصغير ماءه أسفل قنطرة حجرية ذات عقدين صافيا إلى الحمامات التى تحتها أسراب للتصفية فى مجرى آخر. بكت فقال الغريب: لماذا تبكين؟ قالت: كانت هنا مملكة وثمة ملك وعرش وأميرة، وكان يقيم بين هذه الجدران سلاطين ورجال يوجهون مصائر رعية، ومن أحد هذه الأبواب خرجت يوما ولم أعد.

بعيد باب أروى، وقبل نهاية المنحدر أنهك الحصان، وبرك كما تبرك الجمال. فقالت: لم نصل بعد!. قال الغريب إننا هنا بشكل مؤقت. حدقت فى وجهه كثيرا فضحك، وقال: هل عرفتنى؟ رن صوته القديم فى أذنها، فصرخت فى فرح: عبدالمجيد الصعلوك مضحك الملوك! فقال متنهدا: أخيرا! استريحى قليلا أيتها الأميرة أروى. سألته عن علىّ الدين فقال: خادم الملك؟ فقبلته وقالت: نعم! فقال: الله يرحم الجميع! كانت تعرف أن الحصان البنى ذى القوائم البيضاء سيعرف طريقه وحده نحو بهو الريحان وسيقف على بركة الماء الرائق الأخضر التى تتوسطه، تظللها أشجار الريحان، وسيمرق

إلى بهو البركة، ثم إلى بقية الأجنحة الملكية حيث كانت تلهو أمام بهو السفراء، حيث يعقد مجلس العرش، وسيدخل ساحة السرو وقاعة الأختين اللتين بهما رخامتان أرضيتان متماثلتان، ومتساويتان وفريدتان فى ضخامة الحجم، وسيدخل الحصان الجميل فناء الأسود بأعمدته الرخامية الرشيقة المائة وأربعة وعشرين التى تحمل أربع مشرفيات، ذات عقود بأربع قباب متقابلة ومتماثلة الصنع، وستتركه لتلهو فى النافورة التى بوسط الفناء يحمل حوضها المرمرى الضخم اثنا عشر أسدا من رخام أبيض فى دائرة، وتجوس داخل الأبهاء الملوكية الفخمة، وتقرأ فى أركانها سورة الملك منقوشة بكاملها.

قال: نعم .. سيحدث كل هذا .. لكن بعد أن يستريح الحصان.

برك الحصان كجمل أمام دار واسعة، خرج من فنائها فتى تسبقه رائحة البرتقال، استقبلها بانحناءة مؤدبة، وقبل يدها وقال بخجل شديد:

– مرحبا بالملكة أروى.

وتقدمها إلى الداخل فى بهجة. أفزعها أن ترى فقرتين محطمتين من ظهره وآثار الدماء تنزف من إحدى وسبعين فتحة. صرخت منبهرة: أنت لم تمت إذن؟ فالتفت مبتسما وهز رأسه:

– مرحبا بالملكة أروى.

توقفت أمام باب الفناء، خيرته بين أن يخبرها باسمه، أو لا تدخل. قال: وهل يهم الاسم فى هذه الأوقات؟ قالت: نعم. قال بخجل : راشد عبدالمجيد. قالت: متى عدت؟ قال: حالا. قالت: هل التأمت جراحك؟ فقال إن جراح جسده التأمت، لكن جروح روحه لم تندمل بعد. قالت: خبرنى أيها العائد عن الموت. قال وهو ينظر فى الأرض دون أن يرفع بصره: لا يخبر عن الموت بحق من نجا، إنما يخبر عنه بحق الموتى أنفسهم. كان بالفناء صور لأبى زيد وسيوف متنوعة وقلاع وحصون قديمة ومراكب فى وسط أمواج عاتية وعلى البوابة من الداخل عبارة: ملك الملوك إذا وهب، لا تسألن عن السبب.

إلى أن يستريح الحصان، ظلت أروى مع عبدالمجيد الصعلوك مضحك الملوك. تعد الطعام وتملأ الجوزة بالماء وتجهز الحجر، وتنظف الفناء وحجرة عبدالمجيد وباقى البيت بسرعة، ثم تعنى باقى الوقت بالحصان المتعب. كان راشد يجىء ويغيب دون موعد، وصار غيابه أكثر من حضوره، وكانت كلما امتطت الحصان، تفاجأ به خلفها، يحيط صدرها بيديه، ويضغط ليمنعها من السقوط، حتى أنها تشعر من شدة الضغط بمواضع الواحد والسبعين طلقة، فتقول: متى خرجت؟ فلا يرد. تبكى وتذهب إلى عبدالمجيد وتسأله: أين راشد؟ فلا يبدو أنه يسمعها. تبكى فيربت كتفها، يلاعبها ويناوشها لكنها لا تضحك. تعيد السؤال، فيمد كفه ويطلب أن تشمه، ويسألها دون أن ينتظر إجابة إن كانت ليلة أمس ليلة خمسة عشرة؟ فقد قابله ابن عمه حسن أثناء عودته من عند خالها متأخرا ليلة أمس، وأمام جزيرة علما وسط النهر والمزروعة بأشجار الأرو والفاكهة انتابه الخوف الشديد وكاد يجرى هلعا حين سمع المعدية تشق الماء فى الظلام، ولم يثبت إلا بعد أن سمع صوت قرطاس بن عمه مناديا:

– إيه اللى أخرك عند أبو النسب كده؟

لم تؤنسه فى هذه الليلة التى كالكحل سوى كلمات قرطاس وصوته الأجش المتدفق، يسأله عن راشد، وعن العروسة والأرض. لم يمتعض سوى من خشونة كف قرطاس الزائدة حين اعتصر كفه بأصابعه الخشنة التى تتلوى كأنها تستعد أن تسلمه شيئا، وحين آلمته الخشونة الزائدة سحبها، لكن الشىء اللزج كان قد استقر فى وسط كفه، نتر كفه فى الظلام عدة مرات فابتعد قرطاس وهو يقهقه ويضرط فى الظلام، مخلفا فى كف عبدالمجيد اليمنى تلك الرائحة القذرة التى لن تزول بالغسيل وستظل فى كفه حتى يموت . قالت: أين راشد؟ نظر إلى كفه مرة أخرى بقرف وقال: إن ابن القحبة شخ فى كفه انتقاما مما حدث له ليلة العيد الكبير، وكان أصدقاؤه قد أنبوه لأنه لا يصلى، وكان يتهرب منهم فى كل مرة ويراوغ، وحين ضيقوا

عليه الخناق صرح أخيرا بأنه ليس أقل من الحاج أحسن أو محمد الشربينى أو محمود أبو غز، فهو يمتلك ستة قراريط فى طرح النهر، ومثلهما لديه ولد وحيد، فلماذا هذه التفرقة؟ وأقسم أن لا يدخل الجامع حتى يعطيه ربه بقرة بلبنها ومشنة عيش ممتلئة، وحتى لا يفاتحوه مرة أخرى فإنه حدد هذه المهلة بالعيد الكبير. فى منتصف ليلة العيد، استيقظ على خوار بقرة فى الفناء وتعثر فى مشنة العيش، فخرج من تلقاء نفسه إلى جامع البحر، يزعق فى الظلام ليوقظ الناس قائلا: إن كل من لم يصلي يكون كلبا وابن كلب. على باب جامع البحر المغلق جلس فى انتظار الفجر، ومن وسط الظلام جاءه النداء:

– يا أبا راشد.. اسجد!

فقال: ومن أنت؟ فقال: ألا تعرفنى؟ أنا من أعطيتك البقرة ومشنة العيش. قال: وما يدرينى؟ قال: اطلب ما تشاء أجبك ، ففكر وقال إنه لن يسجد له حتى ينفذ ما يطلبه منه، فقال: لك ما تريد، فخرج إلى الخلاء وعاد بقطعة طين طرية، وقال اسجد لهذا الشيء أولا فأسجد لك بعد ذلك، وسجد الصوت ثم طالبه بعد ذلك بالسجود تنفيذا لما اتفقا عليه، فقال وهو يضحك ويصرخ ويزعق فى الشارع حتى خرج الناس:

– سجدت لشختى وعايزنى أسجد لك.. ها ها .. يا أخى دا بعدك.

ولما عاد، لم يجد البقرة، ولا المشنة، فبذر القراريط الستة بالمكرونة، متسائلا: لمن يزرع البرسيم إذا لم يكن لديه بقرة؟

كان يعرف أنهم لن يتركوه هكذا يفوت بفعلته. يتوقع ملاعيبهم القذرة، فيحبطها حين يجاريهم متظاهرا بأنه يصدق أن الجنية المنتظرة بالجرة الممتلئة على حافة الرياح أسفل الكوبرى هى آمنة أم حبيش، وأنها تنتظر من يرفعها على رأسها: إيدك يا خويا. فيقترب ويرفعها، وقبل أن تستقر الجرة على رأسها يشعل عود الثقاب فى وجهها، فتقفز فى الرياح.

وحين طرق الحاج أحسن بابه فى منتصف الليل كما اتفقا ليشويا أكلة

ذرة، قال من تحت الغطاء: من؟

- الحاج أحسن، يالله ياسيدى اتأخرنا.

فقام، دس البلغة فى قدمه، ونطر الشال على رأسه وتوجها إلى الساحل، ففاجأهما الفيضان. بدا أن الحاج أحسن كان قد عمل حسابه، فخاض فى الماء حتى صدره دافعا أمامه طشت الصاج، يقطع الكيزان من العيدان المغمورة ويرميها فيه. لم يكن العجب فى أن الحاج أحسن يسبقه، أو يخوض فى الماء كأنه يمشى فى الناشف، وينزع قشر الكيزان، ويشعل النار بسرعة، إنما كان العجب حين ازدرد الحاج أحسن وحده خمسة وعشرين كوزا من الذرة وهو جالس مربع الساقين. عادا يضحكان ثم دخل ولم يكد يغمض عينيه حتى بدأ النقر على الباب، قال: من؟

- الحاج أحسن.. يالله يا سى عمجيد النهار طلع.. راحت علينا نومة..

انتبه إلى أنه كان يحلم، أو أن الحاج أحسن قد جن بالتأكيد، وخرج مكذبا نفسه: لعلنى كنت أحلم. ذهب معه. ورأى تماما ما رآه، وظلا أمام الباب يضحكان، فلم ينم هذه الليلة مطلقا، وقال فى نفسه إنه بالتأكيد لم يكن يحلم، وأنه فى إحدى هاتين المرتين كان العفريت الذى يأكل معه دون أن ينتبه إلى خشونة كفه أو قدمه التى تشبه حافر الماعز، وفى الأخرى كان الحاج أحسن، وبينما كان يخمن أيهما الذى كان فى المرة الأولى، ومن كان فى الثانية، طرق باب الفناء بلهفة، رد من أسفل الحرام: من؟:

- الحاج أحسن.. يالله يا حبيبى.. على اتفاقنا؟

- لحظة واحدة يا حاج.

وبدلا من أن يتلو فى وجهه سورة الناس، خلع البلغة وعاصها خراء. وناول العفريت الواقف بالباب ست عشرة بلغة متتالية، فسقط الحاج أحسن من المفاجأة وظل يصرخ حتى خرج الناس، وظل حتى مماته مخاصما عبدالمجيد، ولم يصدق ما قاله أو يقبل له اعتذاراً.

ضحكت حتى دمعت عيناها. لم يكن يضحك الملك غيره. طرد الملك

المهرجين والبهلوانات ومروضى الوحوش والحواة ولاعبى الثلاث ورقات واحتفظ به. وكان وحده القادر على انتزاع الضحكة من أعماق الملك. مسحت عينيها وقالت: أين راشد؟ فأقسم أن عفاريت اليوم أولاد قحبة، كثيرا ما يعتلون الأسطح والشبابيك، يتسمعون الأخبار، ويقذفون بالطوب والحجارة فى الشوارع وأفنية البيوت ليتسلوا بإثارة الرعب والفزع فى قلوب بنى آدم والعبث بهم والسخرية منهم، عفاريت أوسخ من الكلاب الضالة، يشعرون لكثرتهم بالملل، يتراهنون على إيقاع الأذى بالإنسان، أو حمله على سلوك معين، يخوفون الصبية والعائدين ليلا، يسكنون دورا معينة ويطردون أصحابها لتظل مهجورة ويوقعون بين الأصدقاء والأزواج. ستقولين: واشمعنى أنت اللى العفاريت بتعاكسك؟ سؤال جميل فى محله، فأنا لم أقل إنهم جاءوا بناء على رغبتى، فبعد أن استلموا راشد فى البداية وركبوه، أصابوه بالأمراض، كان يتشنج ويبرطم ويتخشب جسده، وأوصلوه أن يمسك سكينا ليذبحنى، هذا الولد الوديع الذى ظللنا نبيت معه فى هذا الفناء، أنا والجيران، نقرأ عليه القرآن، نكتفه ونضربه فلا نقدر عليه ونستغرب من أين يأتى ولد فى ثانية إعدادى بكل هذه العافية، ولا شئ نفع معهم حتى شققت جلبابى للذيل فى الظلام وصرخت فيهم:

- سيبوا الولد الغلبان ده لحاله. ده عيل ميعرفش حاجة.. تعالولى أنا.. أنا قدامكم أهه.. أنا جتتى نجسه وشقيت طوقى للذيل.

ظل الناس يهدئونه وهو يشتم العفاريت أولاد ستين وسخة ويهددهم إن لم يتركوا الولد لحاله، حتى أفاق الولد. أفاق تماما كأن لم يكن به مرض، وكأنهم تركوه وتفرغوا له، فصار، يعرف كيف يعاملهم.

كان الحصان البنى ذو القوائم البيضاء وحيدا أمام الباب، وهو يمسد شعرها على حجره وهى تغالب النوم. بكت قبل أن يواصل الحكى كأنها تحلم:

- أريد أن أعود إلى القصر.

- بعد أن يستريح الحصان.



لم يتخيل قط أن الأفكار والنظريات يمكن أن تموت هكذا مرة واحدة، أو تهوى كما تسقط العمارات، فتتناثر محتوياتها وزخارفها على قارعة الطريق، وتلقى على الأرصفة - بلا قيمة - مئات الكتب والمجلات والنشرات دون أن يلتفت إليها أحد، وكان مجرد حيازة أحدها يكفل لمن يقتنيه التشريد والاعتقال. كان راشد يكلم نفسه فى شارع المديرية كلما وخزه التساؤل المتهكم لبائع الجرائد. كأنه كان نائما فلم يشعر متى صارت هذه الكتب دواء منتهى الصلاحية، وكيف أصبحت الأفكار التى يعتنقها تمائم سحب منها السر، وكأن ما مر كله أصبح فجأة فى ذمة التاريخ.

منذ انخرط فى صفوف هذا التنظيم وهو يعلم أنهم مناضلون واثقون، لا يخططون لكسب أرض جديدة، بقدر ما كانوا يقاومون، يذودون عن مواقفهم. رغم تقهقرهم، فإن صلابتهم فى الدفاع هى ما شدته إليهم، فتخلى بسرعة عن أفكاره الأولية الصبيانية، وتمرد على قهر الأسرة والتخلف وسطوة مشايخ الكتاب، ووجد ملاذه فى الكتب، حيث كل شئ قابل للنقاش والفهم والتقييم، لكن الذى لم يعرفه - إلا الآن - أنهم كانوا فى مرحلة الأفول، وأنه كان يسير دون أن يدرى عكس التاريخ، وأن بائع الجرائد كان أنفذ منه بصيرة وأكثر منه قدرة على قراءة المستقبل.

- لسه حد بيقراها؟

هل كان وحده الذى يصحو مبكرا ليشترى جريدته المفضلة قبل أن تنفد أو تصادر من الأسواق؟ من غيرها كان يكشف الأخبار السرية والصفقات المشبوهة؟ ويفضح من يتعدى على مصالح الفقراء والطبقات الدنيا، ويثير الرأى العام ضد الاستبداد والكبت وتقييد الحريات، ويشير إلى التزييف المتعمد فى وسائل الإعلان، وفضح استفتاءات صورية وانتخابات هزيلة، بمانشيتات عنيفة وجريئة، فهل كان مهما كم كانت توزع؟ مئات الوطنيين فصلوا واعتقلوا، فصار الاعتقال وساما يهون عليه سنوات الأذى والسجن. هل كانت هناك صحيفة أخرى تقول مثل ذلك؟ قل يا بائع الجرائد.

لم يرد حسنى، إنما فتح الجرائد متنهدا بشكل عشوائى. أى صفحة تريد؟ لست فى حاجة إلى البحث، فالمناضلون الذين اعتقلوا – كما تقول – متناثرين على كل الصفحات وهذا كلامهم، بلا لون ولا طعم ولا رائحة. ركبوا الموجة فى آخر لحظة، فعن لسان من تتكلم الآن؟

انخرس تماماً، وقد رأى بأم رأسه المفكرين يزينون الصفحات الأولى للجرائد الأخرى كزخارف عمارة منهارة. للغربال الجديد شدة. اليوم يضعونهم فى الصفحة الأولى، وغدا يصير الأمر عاديا فيدخلونهم إلى الصفحات الداخلية والأعمدة المختبئة. إنه الاحتواء، أو قل الإغراء.

– ولا حتى هذا .. إنه ركوب الموجة فى اللحظات الأخيرة قبل الغرق.

– استسلام؟

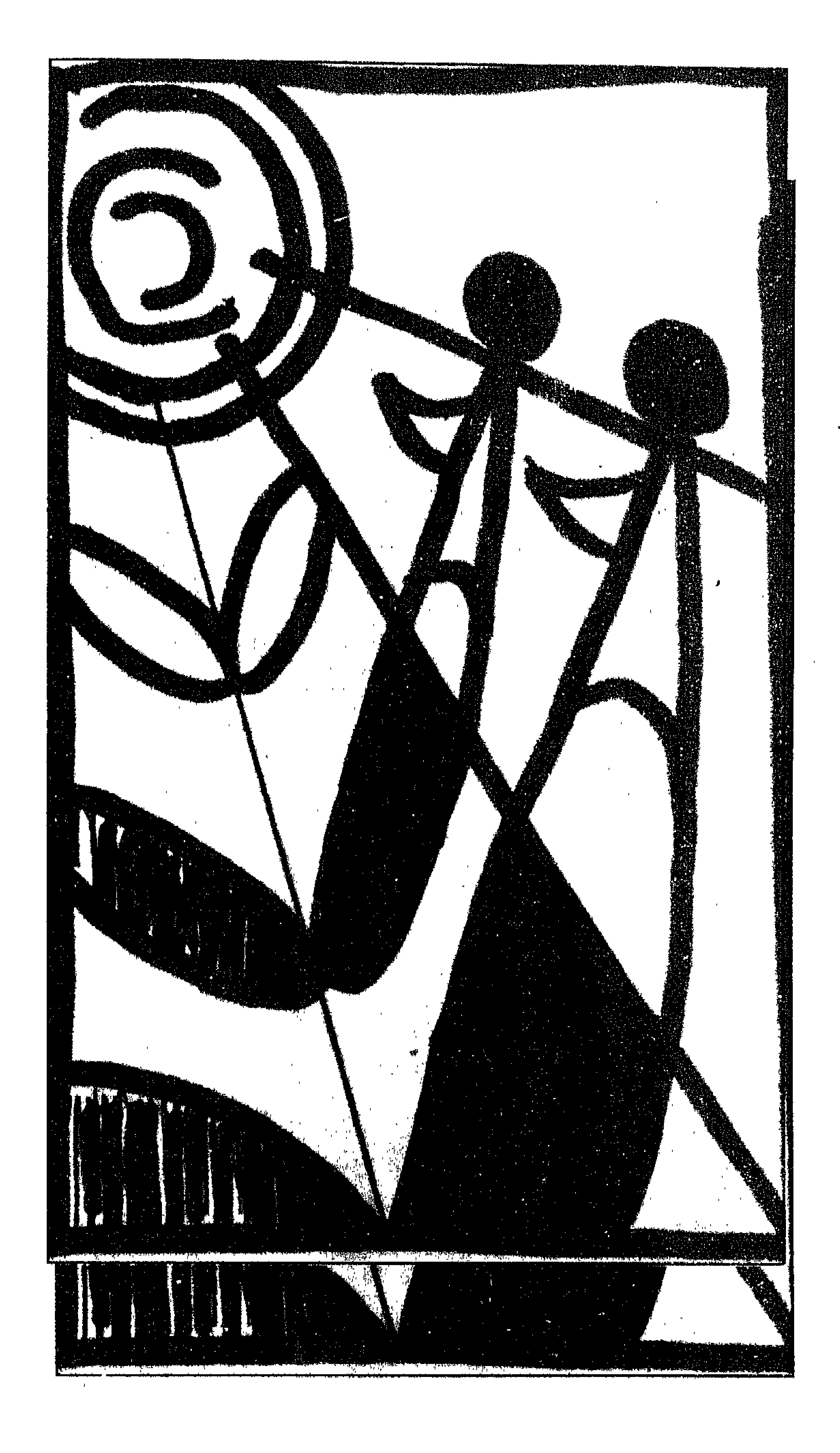
– شئ كهذا.

بدا أنه لا يعرف الاتجاهات. ريشة فى مهب الريح. لا شئ يملكه سوى التنقل بين المعتقل والمستشفيات النفسية، والفقرتان المحطمتان إثر واحد وسبعين طلقة، ورفوف من الكتب تدوس مثلها الأقدام على الأرصفة عن نظريات راحت ولن تعود كأمس الدابر. بدا الجميع كأنهم يعرفون

اتجاهاتهم، يشيرون بآلية إلى المساجد والمدارس والأسواق، والمصالح، حتى المتسكعون على الأرصفة وشاطئ النيل والجالسون على المقاهى. وحده الذى يتخبط وهو يرى رموزه قد ارتموا فى أحضان نظام لم يتزحزح قيد أنملة فى اتجاه ما يعتقدون. أغلق حسنى الجرائد وخفف عنه:

– الزمن تغير، والشعارات تغيرت، واعذرهم، فعن ماذا يدافعون الآن؟

كان يسير صامتا فى شارع المديرية، حزينا من استسلامهم المجانى الذى لم يكن يرى مبررا حقيقيا له، بينما كان أمامهم أن يموتوا جميعا وهم يدافعون عن شعاراتهم ولا يظهرون كفئران مذعورة تهرع إلى الموجة الأخيرة. كأنه لايريد أن يرى، كان يخبئ عينيه بيديه، فتسقط أوراق الجريدة اليومية غير المفضلة من بين أصابعه وهو يتوارى عن مارة يحدقون فيه بدهشة، متغلبا كمحارب مهزوم على عاهة فقرتيه قبل أن يدخل عمارة أندراوز.



ملك الموت – لاشك – الذى كان يرابط أمام باب حجرة عبدالمجيد لثلاث ليال متصلة، حين تكور لصق الحائط فزعا فى سريره، يحدق فى فتحة الباب. لم تخفت خلال هذه المدة أصوات البط والطيور على الأسطح، وانتابت الأبقار العائدة العصبية كلما مرت أمام الباب فتجفل بقوائمها فى فزع كأن أحدا يسوقها من الخلف، وامتنعت العجول الرضيعة والحملان من المرور. وانتظمت تعوى فى طوق حول البيت – الكلاب المتوجسة، ثم انتقل العواء إلى طوق أوسع كأنه الصدى، فشمل الحى كله من السكة الحديد إلى النيل كأنما لذئاب، وبدا أن دار عبدالمجيد ذات البوابة الخشبية الكبيرة والفناء قد صارت مركزاً لدوائر الصخب، بل غرفته تحديدا، حيث يتكور ببصر لا يتحول عن فتحة الباب، حيث كان ملك الموت – لاشك – ينتظر إتمام مهمته. لم تتوقف عن الترجيع دوائر الصخب المتداخلة إلا بعد أن انفجرت صرخة أروى الملتاعة متبوعة بصوت ثيابها تتمزق، وخروج الطبيب الذى فى عيادة أندراوز بحقيبته التى أكمل غلقها فى الشارع.

لم يكن غريبا على مدينة كانت فى الأصل قرية، تعشق التفكه والسخرية، ألا تتذكر من عبدالمجيد سوى موتته الغريبة تلك، وزراعته قراريطه الستة بالمكرونة وإحاطة حدودها بالشيكولاتة كل عام، ومقاسمته زجاجة الكينا مع حمار فر من قسوة صاحبه، دون أن تشير – لو من طرف خفى– إلى أمنيته القديمة جداً بأكل المكرونة ما بقى من حياته والتحلية بالشيكولاتة، أو تلمح إلى يمين الطلاق الذى رماه على المقهى بأن يشرب مناصفة زجاجة الكينا

مع أول من يمر من هذا الطريق، حتى وإن كانت أم راشد ميتة من أحد عشر عاماً.

لم يكن غريبا عليهم تذكر ذلك رغم ندرة هذه النوبات التى تأتيه من آن لآخر، ثم تتركه طوال العام سليما ومبتهجا، يناوش فى الرائح والآتى من أجل سيجارة أو كوب شاى، يجلسه الناس ويفتحون له الأبواب حتى يبدأ حكاياته الملفتة والمتشابكة، بدأب كأنه يفك بكرة خيط بنظام وروية، عن عفاريت هذه الأيام أولاد القحبة، التى لا تجد سبيلا لتضييع وقتها والتسلية إلا بالاستهزاء والسخرية من بنى آدم بعمل المقالب والضراط بعد ذلك وملء الليل بالضحك المريب، ولأن نجمه خفيف فإنهم يختارونه، يعملون فيه المقلب دون أن يكتشف أنهم عفاريت إلا بعد أن يسمعهم يبرطعون كحمير مقمصة، يضرطون ويضحكون بصوت عال. يروى الحكايات فيذكرها الناس وينساها هو بمجرد انتهائه منها، تلك الحكايات التى غالبا ما تتزامن نهاياتها مع نهايات كوب الشاى أو العصير، أو الوجبة التى يأكلها. عندها يقذف – وهو يتألم أو يدمع – الطبق أو الكوب الفارغ فى الحائط بقسوة ليتحطم ثم يمشى بعد ذلك وديعا وهادئا فى سلام شديد كأن شيئاً لم يحدث، فيحدق الناس بذهول فى عبدالمجيد، ويلتمسون له العذر منذ أقامت العفاريت فى جسد ولده راشد، وأصابته بالتشنجات، لا تتركه إلا حين يسقط على الأرض كجذع شجرة، يرغو فمه. سنوات والعفاريت تعبث بالولد دون رادع حتى أنه لم يبق أمامه إلا أن يقف على رأس ابنه المتشنج، ويشق طوقه للذيل ويزعق لاطما خديه ولاعنا أولئك العفاريت، عارضاً عليهم – لو كانوا عفاريت محترمين – أن لا يستضعفوا هذا الصبى الغلبان الوحدانى، ويدخلوا جسده هو. هدأه الناس الذين تجمعوا حوله، وطلبوا منه أن يوحد الله، فتهدج صوته وهو يشير إلى الدم الذى انبثق من جانب فم ضناه الحيلة ذى العينين الثابتتين:

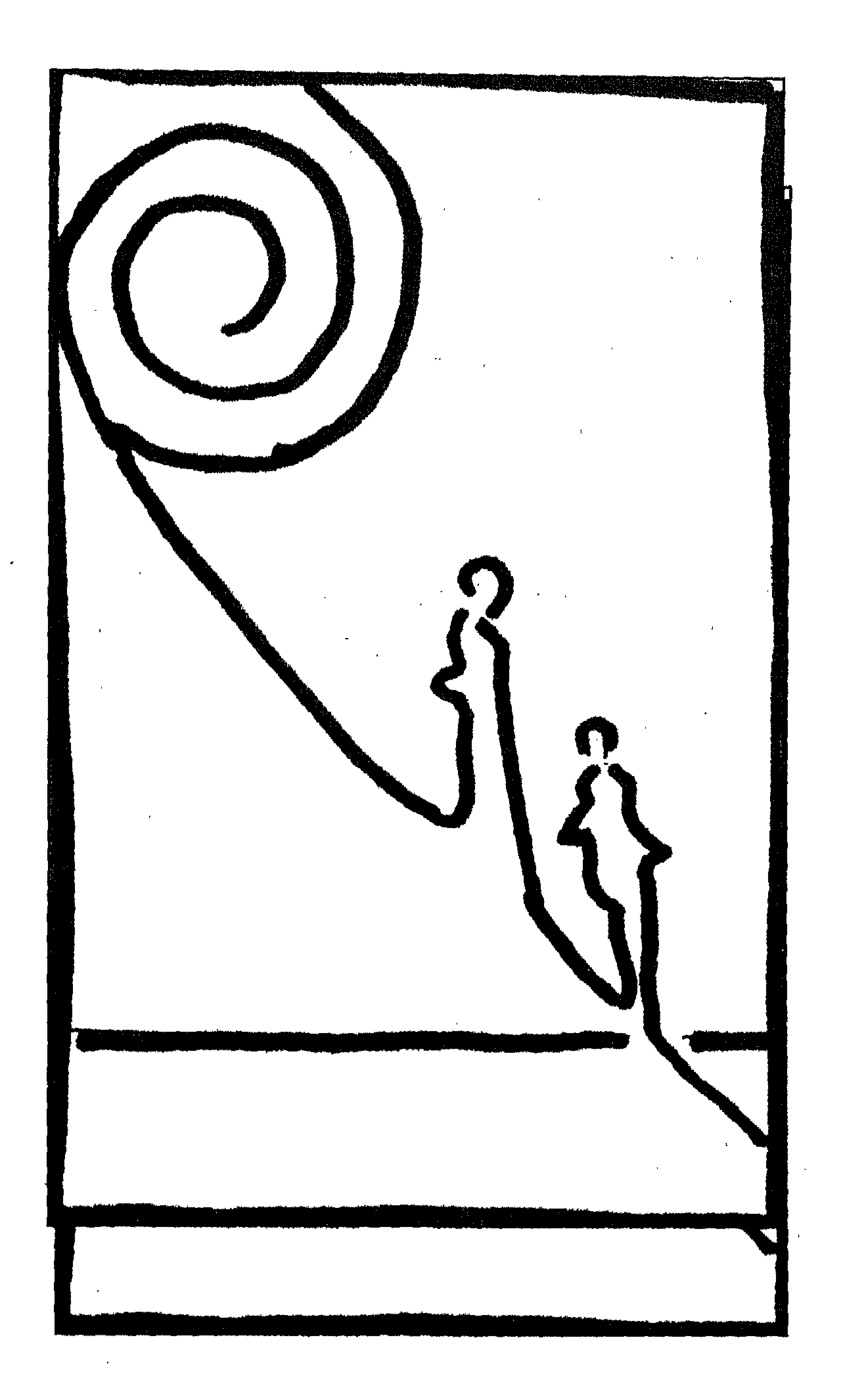
– يرضى مين ده؟

كأنما خافت منه العفاريت أو قبلت العرض. تركت جسد راشد ليخف تماما كأنه لم يكن به مرض ودخلت جسده هو فلبسته، وظل عبدالمجيد يكلمهم وحده، ويشرب معهم الشاى، ويرد عليهم التحية، ويضع لهم الأكل بجوار الحائط، ويعزم أحيانا عليهم بالسجائر، وكانوا يخبرونه بما يعرفون. رآهم بوضوح بعد ذلك، فأخبروه بأن راشد سيدخل كلية الاقتصاد، وأنه سيصير مشهورا. كان سعيدا بأنه يراهم الآن على حقيقتهم أكثر من ذى قبل. حدث راشد بذلك أكثر من مرة فلم يلق بالاً لذلك. إلا بعد أن كثرت وشوشته له بأن ثمة كنزاً مخبأ له، دون أن يدرك أنه فى كل مرة كان يشير إلى مكان مختلف يحدده ويخرج بالفأس ويحفر وحين لا يجد شيئاً يصرخ:

– آه يا أولاد الأبالسة!

وحدها من بين الحكايات التى كان يرويها عبدالمجيد، ظلت حكاية الكنز ثابتة تماما كلما حكاها. لا يحيد عنها كما فى الحكايات السابقة، تبدو ملامح الصدق والذهول فى آن مسيطرة عليه، كأنه يروى من واقع رؤية حقيقية، غير أن التباين بين الروايات المختلفة لا يحدث سوى عند تحديد مكان الكنز، فيعود لتعليقه المتكرر إذا نبهه أحد:

– ما هم أولاد الأبالسة نقلوه.



أمام لجنة امتحان الماجستير قال إن تسع قرب من الدم الطازج، وعمليتين إحداهما لربط شريانى الرحم، والثانية لاستئصاله، لم تكن كافية، وإن نهلة عبدالواحد ظلت تنزف من أسفل، ومن جرح البطن دما سائلا كالماء.

- تشخيصك المبدئى والنهائى؟

- دى آى سى. سيولة الدم الناتجة عن إجهاض مركون تجاوز الشهرين..

فى الثامنة صباحا، ماتت نهلة عبدالواحد فى العناية المركزة أمامه وحده، وهى تعاتبه: قلت لك هموت، صدقنى.. أنا حاسة صدقنى، وكان يطمئنها كطفلة ويشير بعينه إلى شاشة المونيتور: ضغطك زى الفل أهه إنتى خوافة ليه؟ قول والنبى.. أمال أنا حاسة بكده ليه؟ خمس ساعات فى العناية وحدهما، منذ أفاقت من التخدير، لم يتركها لحظة، حتى ولو ليوضح التشخيص لزوجها الذى انتقل من أمام غرفة العمليات ليجلس أمام غرفة العناية المركزة، ليكرر فى ذهول حين يتلقى النبأ: يا خراب بيتك يا ممدوح.

- هل كانت الأمور ستختلف لو عرفت بأمر هذه السيولة بالتحاليل؟

- بالنسبة لى كنت سأعلم التشخيص فقط، ومن ثم لم أكن لأتورط، وبالنسبة لنهلة فالأمر سيان، لأن السيولة قد نخرت كل عوامل التجلط فى دمها، الذى ظل منضغطا خلف فلينة أزيحت فقط أثناء الفحص.

- هل كان من الممكن تجنب ما حدث؟

- نعم.. بالمتابعة الدورية والموجات فوق الصوتية من بداية الحمل.

أخذ ممدوح وأقاربه جانبا منه حين أفاقوا من الصدمة، معتبرين أنه المتسبب فيما حدث، إذ لم تحن آن ذاك الفرصة ليشرح لهم ما حدث على هذا النحو المفصل، ولم يكن من ثم مجديا بعد ذلك أن ينقل ما حدث داخل غرفة العمليات والعناية المركزة لكل من خرجوا من العيادة بعد نزوله مبللا بالدم ونهلة محمولة على ذراع ممدوح، أو للمستيقظين فى الصباح على النبأ، أو للمشيعين والجالسين فى سرادقات العزاء، ولمن سيترددن بعد ذلك على العيادة حتى هذه الجالسة أمامه، ومن سيصدقه لو قال إن عشر دقائق أخرى كانت كافية لأن يندفع الدم وحده من رحم نهلة المصممة على الموت – حتى لو لم يفحصها – كزجاجة مضغوطة انتزع فلينها وحده بقوة الدفع؟

الشئ المؤكد أن نهلة ماتت، وأن ما سيقوله غير مجد، وأنه ما لم يرح رأسه قليلا فإنها ستنفجر، فما سيسوقه من حجج وتبريرات لن يصمد طويلا فى مدينة كانت فى الأصل قرية تستشرى فيها الحواديت، وتستحيل فيها الأرحام بيوتا صغيرة وغامضة، ترتع بداخلها مثل عقلة الإصبع أجنة صغيرة، بريئة ونشيطة، وأنه – أمام حقيقة الموت – لو ظل ينشد ما حدث على ربابة، فإنه لن يستطيع أن ينفى عن نفسه فكرة أنه مفرق الجماعات وهادم اللذات، الذى أنهى الحدوتة مبكرا، بلا تبات ولا نبات، وسبحان من له الدوام.

لم يسأله أعضاء اللجنة عن عدد الحالات التى ولدهن وعشن، واللاتى بلغن ألفا وثلاثمائة وخمسة وثلاثين حالة. لم تذكر اللجنة، كما لم يذكر الناس فى هذه المدينة التى تشبه جسداً ممدداً، هادئاً وراكداً، سوى نهلة والتى لم يكن يوجد منها فى هذه المدينة سوى اثنتين، فولد بها بعد ذلك سبعمائة ونهلة واحدة. هل ماتت نهلة فعلا؟ وهل ماتت عزيزة التى بلغ عدد عقل الإصبع اللاتى تسمين باسمها فى ست سنوات مئة وخمساً وستين عزيزة؟ كما تحيا الحواديت، ستظل حكاية نهلة وعزيزة على شواطئ فرع دمياط والرياح التوفيقى والترع والجنابيات، تجوب المدينة وقراها، وتعود معبقة بالحكايات الصغيرة، والمزيد من النهلات الصغيرات والعزيزات.

– ما الأخبار عندك؟

تجلى الشيخ سيد هذه المرة متكئا على حافة المكتب، كأنه بنفس الجلباب الأبيض الذى كان به فى الكوخ.

– الحمد لله.

– وماذا ترى أمامك؟

فهم أنه يقصد حالة الولادة. رد بارتياح وهدوء.

– ربنا معها، تتألم وحالتها مزعجة، لكننى مطمئن.

– شهدت الكون وشهدت المكون عنده وبأثره. ها أنت تستشرف.

وشت نبرة صوته هذه المرة بشئ من الرضا. كان يسمع الصوت واضحا، لا لبس فيه، وكان بإمكانه تحديد مكانه، متكئا على حافة المكتب أمامه، بيده نفس المسبحة، يتمتم بالأوراد ما بين الكلمات، تشجع وطلب أخيراً:

– أريد أن أراك؟

يرانى بعينى من رآنى فى الرؤى ويسمعنى سمعى وتلك إرادتى

غمر الحجرة نور مبهر، وبدت شمس الضحى كأنها واقفة خلف زجاج الشرفة المغلق. رأى كل شئ مختلفاً: سرير الفحص والبارفان، دولاب الأدوية. الميزان، سطح المكتب وجهاز الضغط والسماعة، وجهاز السونار. لم يدر إن كان السبب فى حالة الصفاء والبهجة، أنه لم يعتد المجئ إلى العيادة

فى هذا التوقيت أم لتجليه بوجهه المضئ هناك على حافة المكتب، واتكائه بذقنه الحليق - كما كان يجلس دائماً - على مرفقيه فى جلبابه الأبيض، حيث أمارات الصحة وحيث لا كبد ولا استسقاء ولا توهان؟ داهمه شعور بأنه سيتركه بشكل مفاجئ كما فى المرة الأولى، فخطر له أن يسأله هذه المرة فيما طلبه أول أمس؟ لكنه سمعه كمن يجرب صوته فى البحث عن مقام، ينشد بصوت رقيق وهادئ وهو ينقر المكتب بأصابع كفه الممدودة بمسبحة:

لأفطم منكم من أتم رضاعة وأورث سرى للذى فيه صبغتى
وأنفخ فى روع المريد فينتقي جـواهـر علم الأولين بنفحتى

أعاده الصوت الشجى المنبعث من أركان حجرة الكشف إلى عوالمه القديمة، كأنه فى حضرة. صوت واضح. لكنه غير محدد الاتجاه. لا تحت ولا فوق ولا جنب. ينبعث من الداخل أم يجئ من الخارج؟ صحو أم منام؟ كأنه ينشد بين طبقتين. كان يتمايل فتصفو همهماته وترق. انتقل إلى وسط الحجرة بعد أن ضبط بنقراته الإيقاع وعثر على المقام.

عنت له الأسئلة وهو يحدق فى مركز الحجرة: كيف يعاين شيخه هكذا بعد أن مات؟ وحين خطر له أن يقوم إلى منتصف الغرفة ليعانقه، ترامى صوته الشجى واضحا من أركان العيادة كلها:

أروح وأغدو في الغيوب مسافرا محط رحال السالكين براحتى

أدرك تماما أنه ليس نائماً ولا يحلم، وأن بدنه هو الذى يرتعد من الشجن على الكرسى خلف المكتب الخشبى الكبير فى العيادة الكائنة فى عمارة أندراوس، بالدور الثالث، فى حجرة الكشف ذات الشرفة مغلقة الزجاج، حيث إمرأة فى انتظار المخاض ، كان يبحث منذ قليل فى الدولاب الذى بحجرتها عن الورق الذى أمامه الآن، وأدرك أن الواقف فى وسط الحجرة ينشد هذه الأبيات ليس سوى شيخه الذى أومأ له أن يكتب عنه. منحه الإذن فأمسك بالقلم ليكتب كل ما يخطر بسمعه. لم يكن وحده صدى الصوت المتردد فى

أرجاء الغرفة مغلقة الزجاج، ولا الإيقاع المنضبط،، ولا هذا المد التلقائى المريح للقافية. كل ما جذب انتباهه إلى أن ما يلقى على مسامعه الآن تائية طويلة، إنما تصريحه وكشفه عما لديه من منح وفيوضات، وتفاخره صراحة بما لم يفصح فى حياته عنه.

ظل يكتب حتى تصبب عرقا، فلم يدر كم ورقة كتب، وكم قلما غيَّر. أومأ له فأراح يده وفرقع أصابعه. جال بخاطره الدرويش المداح، وتساءل لماذا مر هنا اليوم؟

– تقصد باهى؟

– لا أعرف اسمه.

اسمه باهى. يدور هكذا منشداً، على عربته بحصان، واقفا كأنه يستعرض. مسكين باهى. جرى حصانه فى الصحراء فخرج خلفه. ومر على جماعة من أهل الله. السلام عليكم. رد السبعة سلامه فى صوت واحد. تفضل فتفضل القهوة. وما إن شرب باهى فنجان القهوة حتى كان كلبهم الذين أومأوا إليه قد انطلق فى الخلاء الفسيح وأتى له بالحصان. عاد بالحصان ليجد امرأته تزوجت بأخيه الأصغر. وأبناءه كبروا وتقاسموا تركته، وقد غاب عنهم ثمانى سنوات. ولأن ما غابه لم يتعد شربه فنجان القهوة، فإنه عاد من حيث أتى، واضعا عربة خلف الحصان ولم يتبعه سوى ولده الأصغر، وظل ينشد هكذا.

ـ وإلى متى يظل ينشد؟.

ـ إلى أن ينتهى من السبعين ألف بيت من المدائح النبوية.

– وممن حفظهم؟.

ـ من أهل الله أثناء شربه القهوة.

ـ وهل يكفى عمره لإنشاد سبعين ألف بيت؟.

ـ الزمن لدى باهى واقف لايتحرك.

كان باهى كما هو منذ أكثر من عشرين عاما، نفس الجلباب، تحته

القميص الأبيض وعلى رقبته اللاسة الخضراء، والدف في يديه أو يد ابنه الذي يمسك اللجام، لأكثر من عشرين عاما والحصان والولد وباهى كما هم، كأنهم لايكبرون.

ـ وأين يذهب الدرويش باهى؟.

ـ اسمه باهى السائح، وهى مرتبة من مراتب المجاذيب، ووظيفة فى دولة الباطن، يجىء صباحا من دسوق، ويصلى الظهر فى طنطا والعصر فى سيدنا الحسين.

ـ كيف عرفت كل هذا وأنت لم تقابله؟.

استأنف الإنشاد، بصوت جميل ورائق كأنه يبتسم:

ولست بناء عن مريدى لحظة — وإن مريدى من أراد إرادتى

وإن صواع الملك أعرف سره — وأكشف أسرار الخبا والسريقة

أشاهد محبوبى وأشهد فضله — وغم على غيرى بغيب الغمامة

كم مر من الوقت حتى يكتب تائية من أربعمائة وعشرين بيتا؟ وإلى متى سيكتب؟ لم ينظم شيخه فيما يعلم بيتا واحدا من الشعر، كان ينشد بين الطبقات – فى الحضرة فقط – قصائد من سيدى أبى العينين، ابن الفارض، وسيدى عبدالرحيم القناوى، يصبغها بجمال صوته، فيحصلون على معان جديدة لم تكن بها من قبل، يتساءل الإخوان عما يفعله إلقاؤه العذب بهذه القصائد، فيقول بتواضع:

ـ إنما هى قصائد نورانية، يهبط أصحابها على الحضرة، فيمنحونها هذا البهاء.. شى لله ياسيدى إبراهيم، شى الله ياسيدى عبدالرحيم.

عرَّفه قديما فى المصلى على النهر أن الله الذى خلق كل شىء بقوة اسمه هو، خلق الأشياء الطيبة فى الوقت الطيب المناسب وخلق الأشياء الضارة فى الوقت النحس غير المناسب، وخلق لكل شىء ملاكا أوكل إليه الإشراف عليه، وأن الاسم يمثل قوة خاصة، ويرتبط بصاحبه بقوة روحية، خاصة أسماء الله الحسنى، وأن لكل منها وقتا خاصا به يجب استخدامه فيه، فكما

لكل مخلوق ملاك موكل به فإن لكل اسم خادما ولكل آية خادم ولكل حرف من حروف الأبجدية، وخادم لكل يوم وخادم معين لكل ساعة ولكل فصل من فصول السنة ولكل نوع من الرياح ولكل اتجاه من الاتجاهات الأربعة، وهؤلاء الخدام يفعلون ما يطلب منهم على نحو مشابه لعملية الخلق الأولى بإذن وتفويض من رب العالمين، أملاه منشدا:

فلو قلت باسم الله للنار أطفها ... ولو قلت باسم الله للسحب أعطت

ولو قلت باسم الله للميت أحيه ... ولو قلت باسم الله للعيس أطت

ولو قلت باسم الله للشمس كورت ... ولو قلت باسم الله للنجم أهوت

وإن قلوب المشركين بربهم ... إذا قلت باسم الله لله حنت

لم يره مفاخرا، أو صريحا فى الكشف هكذا عما منحه الله، بل كان يردد دائما: اللهم اجعلنا أتقياء أخفياء، حتى المشاهدات والخواطر التى حدثته بها نفسه، كان يكتفى ـ ليعرِّفه أنه يعرف ـ بالتلميح بإيماءة، بنقرة فى الرأس، أو بكلمة عابرة تحتمل أكثر من معنى. أمعن النظر فيما كتب وسأله:

ـ ألا تخشى الفتنة يا شيخى؟.

ـ بالانتقال تزول الفتنة والغرور.

فى ساعة الحائط لم يكن الوقت قد تجاوز ربع الساعة، ضرب رأسه بيده، ونظر إلى الأوراق أمامه، أربعمائة واثنين وعشرين بيتا، كتب فى نهاية التانية: أنزلت هذه القصيدة فى الاثنين ١٢ أكتوبر ١٩٩٢، فنقره فى رأسه وأوقفه وأملاه البيت المتمم للتائية:

ألا فخذوا الآحاد عنى معنعنا ... أصح روايات الحديث روايتى

أنشد قصيدة أخرى، وبعد أن كتبها، أمسك بالقلم وخط خطا طوليا على حروف الكلمات الأولى من أبيات القصيدة، فقرأ اسم شيخه (سيد الحسينى عبدالمتعال)، خط آخر فوق الحروف الأولى من شطراتها الثانية فكونت (رضى الله عنهم ورضوا عنه). وضع القلم وظل يخبط رأسه، كأنه يريد أن

ينتبه، فقد كان يدرك أن ما يملى عليه مرعب وخطير، وأنه فى حاجة إلى إشارة واحدة حسية، نقرة أو خبطة مؤلمة تؤكد أن ما به ليست هواجس، ولا هلاوس سمعية ولا أحلاماً، بعدها ستبلغ سعادته منتهاها، لكن شيخه غادر الحجرة معاتباً ولائما:

لسان إلهى يخبر صادقا　　　وعزم إلهى إذا شئت عذ به

فنطق إلهى عن اللغو مبعد　　　وصمت إلهى عن اللغو قل به

وعين إلهى لدى الله نورها　　　بيت إلهى إذا شئت طف به

فانتبه معتذرا فى رجاء:

ـ أعرف يا شيخى.. لكنى أريد أن أراك حقيقة.

انتزعه صراخ أروى المريع والمفاجىء، دخل عليها فرآها ترتعد فزعة، قال: مالك؟ فهدأ روعها أول ما رأته، قالت باسترخاء كأنها لم تكن التى تصرخ:

ـ حسبت أنك تركتنى ونزلت.

مثل آلاف الولادات الطبيعية سوف تلد أروى، وكعشرات الولادات الطبيعية التى يعقبها النزيف، ستنزف أروى، وخلافا لغالبية حالات النزيف بعد الولادة، سيكون نزيفا حادا، وسوف لايستجيب لكل العقاقير القابضة للرحم، وسيتمادى الرحم فى الارتخاء ليستمر النزيف، وسيفشل فى إيقافه تدليك الرحم من أسفل البطن، أو عصره بين قبضتين إحداهما من تحت والأخرى أسفل البطن، فيحشو المهبل بالقطن ويعطى المزيد من المحاليل بالوريد، جلوكوز وملح، على أمل التوقف، فلا يضطر إلى فتح البطن واستئصال الرحم، وسوف تنتبه نسبيا أروى، كلما انقبض الرحم قليلا وقل الدم النازف من أسفل، فيراوده الأمل الكبير فى توقف النزيف بهذه المحاولات الأولية، وستحتفظ بالرحم، فلا يحكم عليها بالعقم النهائى، يزعق:

ـ أروى .. عامله إيه؟.

ـ هه؟.. آه.

يراوده الأمل، كلما سمع استجابة أو حركة، أمبولان آخران من الميثرجين، لا استجابة، سيفعل الخطوات المتبعة لعلاج نزيف مابعد الولادة، يحفظها كاسمه، امتحن فيها فى البكالوريوس، وسألته عنها أول أمس لجنة الماجستير، يحقن من أسفل البطن الرحم نفسه بالإنزابروست، آخر ماتوصل إليه الطب من العقاقير القابضة للرحم، هكذا قال أمام اللجنة أمس، لكنه يرى الآن بعينيه أنه لايفعل شيئا، يا لطيف اللطف.. لماذا لا يفيد

الإنزابروست؟ ولماذا أمام الموقف تأخذ الأمور منحى مختلفا؟ الله يخرب بيت اللجنة، على بيت شركة الأدوية، على بيت مندوبيها وجيش الأساتذة الساذج الذى يروج لهذا العقار بأنه الحل السحرى لوقف النزيف، لطفك يارب، أمل ينهار أمام عينيه بعد أن تجدد، هل يحقنها بالكالسيوم الذى قال عنه أستاذ الفسيولوجى أنه يحسن وظائف العضلة ويساعدها على الإنقباض، قال ذلك فى بحث طويل بمؤتمر، وركز خصوصا، وعقد آمالا كبيرة على فائدة هذا الكالسيوم المتوفر والرخيص فى وقف نزيف بعد الولادة، الناتج عن ارتخاء عضلة الرحم، حقيقة فسيولوجية بسيطة، تناقلها أطباء الولادة الذين يتعرضون لمواقف مماثلة، حقيقة درسها الجميع فى ثانية طب وغابت عنهم، صارت حقنة الكالسيوم هى القشة التى يتعلق بها الغريق، هل ذكر أستاذ الفسيولوجى كم بالمائة من حالات النزيف بعد الولادة تلك التى تتحسن بحقن الكالسيوم فى الوريد؟ نسبة ضئيلة، لايهم، ألا يمكن أن تكون أروى منهم؟ رفع الحشو، فتدفق الدم عنيفا. أمل تجدد فى لحظة وانهار فى لحظة. كيف سيشرح لوكيل النيابة كل هذا التسلسل، والحكم على تجربة بعد انتهائها، يعد حكما على تجربة أخرى، من قبل شخص آخر هادىء الأعصاب يجرى بروفة، يضع فى يقينه ـ ولو بعقله الباطن ـ النهاية التى عرفها مسبقا، وهى موت المريضة، فيتضح الخطأ تماما كهدف تليفزيونى يعاد ببطء.

قاطعه وكيل النيابة، لم يعطه الفرصة ليتكلم، وكيل النيابة الذى يعرفه منذ كان يسكن أمامه فى مبنى «ح» بالمدينة الجامعية، ويلتقيان وجها لوجه أكثر من مرة فى نفس اليوم، لم يصر اليوم على تجاهله وعدم معرفته فقط، إنما بالغ فى إذلاله وإهانته، فاختار الصمت، وكرد فعل متعجرف على سكوته، سيرفض الاعتراف باسمه، وسيأمره بخلع هدومه، ليتعرف عليه فيما يكتب السكرتير خلفه، للجانى جسد طويل، وشعر أكرت، برونزى فى حوالى الخامسة والثلاثين، به شامة أيمن العنق، كثيف شعر الصدر والبطن، يدعى

أن اسمه فلانا، ويدعى مهنة طبيب أمراض نساء، سيزيح البطاقة وكارنيه مزاولة المهنة جانبا ويكمل الإملاء، دون أن ينظر نحوه: تحال البطاقة والكارنيه وشهادات التخرج للأدلة الجنائية، وتبلغ السلطات الصحية والنقابة الفرعية للأطباء بمراجعة العيادة وتراخيصها، ويبصم المتهم وتعرض صحيفة الحالة الجنائية، سوف لن يتنازل عن صمته مادام وكيل النيابة قد اتخذ ذلك الموقف العدائى، وسوف يمنع دموعه أن تنحدر ويضع يديه على صدره بنفس الهدوء والصمت القاتل، إلى أن يضايقه أن يلبس ملابسه، فيزعق:

ـ مين اللى قالك البس؟.

ساعتها سيود لو ينتهى الموقف كما أنهاه أبوه على طريقته، فيقفل التحقيق دون إجابة حتى عن السؤال الأول، حين فتح خطأ طريق المخازن، بدلا من الطريق الطوالى، أمام قطار زفتى بسرعة قيامه المتزايدة، فخرج عن قضبانه، لتنقلب ثلاث عربات خلف الجرار الذى حطم سور السكة الحديد، كان ماحدث كافيا لأن يتسمر فى مكانه وينزله عساكر الشرطة من البلوك على السلم الحديدى مرتعداً فى ذهول من يخطىء لأول مرة قبل انتهاء خدمته النظيفة بأسبوع. انتفض أمام وكيل النيابة كأن به بردا شديدا، واصطكت أسنانه، ولم يكد يلمس جسده الكرسى حتى انتفض لشخطة وكيل النيابة، ثم تهاوى مرة أخرى من يد الصول على الكرسى، نهره ثانية ليقف، فكف عن الارتعاد ولم يقف.

أعاد خلع الملابس مرة أخرى دون أن ينظر له. لم يكن قد ارتداها إلا بعد أن صمت فترة طويلة أوحت له بأنه سيملى أوامره وسيقفل المحضر. أكمل الخلع، وتأكد وكيل النيابة من امتثاله، فقال متنهدا:

ـ إلبس هدومك!.

سنتان فى مبنى «ح» الدور الرابع. الغرفة ٣٠٢ تقابل الغرفة ٣٠٩، أولى وثانية حقوق، خامسة وسادسة طب، كلما فتح البابان يلتقيان، فى الحمامات، فى المطعم والمسجد، هزيل كما هو، وإن زادت عليه البدلة النظيفة

الواسعة قليلا، وهذه العظمة والنظرة الشرسة الكارهة وهو يتكىء بمرفقيه على حافة المكتب، ينظر له ويملى السكرتير:

ـ يستدعى الطبيب الشرعى وتستخرج جثة المرحومة عزيزة السيد شاهين لبيان سبب الوفاة.

يرن التليفون، فيتلقى مكالمة، يخرج وهو ينظر له بغيظ، ويستدعى زميله ليقفل المحضر، ويوصيه بأربعة أيام على ذمة التحقيق، كأن التجريس لم يكن كافيا، ليجىء الطبيب الشرعى على رأس أكثر من ألف رجل وامرأة وطفل تتجدد أحزانهم، يقودهم الضول عبدربه، وإبراهيم عجورة خفير المقابر، وجمعة أبوالجود الحانوتى. تم التعرف على القبر وكتابة أوصافه، واستخراج الجثة بعد رش الماء أمام القبر وفرش ملاءة، وهش الذباب الأخضر الكبير بمنشة جريد، وضع الطبيب قناعا واقيا وارتدى القريبون أسوة به كمامات، وأخذ عينة من المخ والرئتين والمعدة، وفتح الجرح، وفك الغرز، ثم تحرك فتحركت خلفه كل هذه الجوقة، عاين العيادة ووصفها تفصيليا فى تقريره: الكراسى واللمبات والأبواب والمساحة والآلات والأسرة والملاءات وحالتها والحمام والمطبخ وأدوات التعقيم والمكتب والأكسجين، طمأنه بينما هو متكور على مكتبه وصامت بإنجليزية هادئة بأن موقفه سليم، فخطوات العملية سليمة، فلا تجمع دموى بتجويف البطن، وليس ثمة خطأ جراحى، وهنأه بلغة باردة بأنه أتم خطوات الجراحة وخاط طبقات البطن وقفل الجرح بنفس الكفاءة والهدوء رغم أن المريضة كانت قد ماتت قبل ذلك بخمس دقائق على الأقل، وسوف لن يكون سعيدا ببراءة متأخرة وهزيلة، لاتمحو إهانة ولاتزيل ضررا . براءة كالإدانة.

كآلاف الحالات التى تلد ولادة طبيعية، ستلد أروى، وكعشرات الحالات التى تنزف بعد الولادة الطبيعية ستنزف، وكالقلة اللاتى لايستجبن للخطوات التقليدية لتوقف النزيف، سيكون من المحتم ـ مالم يلطف اللطيف من عنده ويتوقف وحده مثلما يحدث كل مرة فى آخر لحظة ـ إجراء العملية البغيضة

واستئصال الرحم كى يتوقف النزيف. العقم أم الموت؟ أى الإجراءات يتبع ، ومن يأخذ موافقته، الوقت جد ضيق قد لايتسع لنقلها إلى المستشفى، ولايتسع لشرح ما يحدث، فقط يمكن استدعاء طبيب التخدير، وحده الذى يقدر، وحده الذى يفهم بالإشارة فورا... احضر.... نزيف شديد بعد الولادة، خدر فورا... استئصال؟ نعم. يدرك الآن لماذا يصاب أطباء الولادة أكثر من غيرهم بالأزمات القلبية. توكل على الله. يعرف وضع الطوارىء. لايناقش، فى دقيقتين نامت، وعشر دقائق لا أكثر استأصل الرحم. قل النزيف لكنه لم يتوقف. يربط الأوردة والشرايين ويتنهد، لايتوقف النزيف، لطفك يا الله، يربط الشريان العجزى الذى يغذى الحوض كله. آخر الحلول ياعمر. هذا المجال أزرق. الدم أزرق، يغلق البطن فى طبقات. صرخ عمر بقلق:

ـ حاول تخلص بسرعة.

الدم أمامه فى المجال أزرق. ازرقت المريضة، ونفخ عمر فى الجهاز. ضغط مضخة الأكسجين ضغطات متوالية وعنيفة. لمس الفرش المعقم وهو يضغط بيديه قلبها ضغطات عنيفة ومتتالية وعيناه على وجهها . هل توقف القلب؟ أدخل السماعة بعنف من صدرها، يستجدى القلب المتوقف أن يدق، انقلبت الدنيا داخل الحجرة وكأنها أظلمت فجأة، لم يعد بوسع أحدهما تذكر ما الذي حدث فى الدقائق الخمس الأخيرة، قبل الخروج من الغرفة. هل خيط الغشاء البريتونى وعضلات البطن والشيث والجلد كل فى طبقته أم لا؟ هل وضع الضمادات على الجرح وثبت اللاصق كما يفعل فى كل مرة؟ لا يذكر سوى أن امرأة تموت الآن بين أيديهما، ولن يفيدها إغلاق البطن بنفس الخطوات من عدمه مادامت ماتت، وليس هناك أدنى شك فى أن المسئولية ستقع على كليهما أو أحدهما.

بدا أن أحدهما لايمتلك الحقيقة الآن، ليفهم ماحدث، لا ليشرح سببه لمن يصرخ بالخارج فى عصبية وهستيرية دون استعداد لفهم ماحدث، المهم أن امرأته ماتت. الشىء الوحيد المؤكد، أنها ماتت، فارقت الحياة ولاسبيل إلى

إعادتها، بدا الأمر كذلك حين خرج عمر أولا. ترك حقيبته كأنه يتنهد. فى ذهول، خبط رأسه، فكر ما الذى يفعله. هداه تفكيره إلى أن يترك المكان، يهرب كما يهرب سائق صدم شخصا، تاركا كل شىء وراءه، رد فعل طبيعى لدى الإحساس بالرعب أو الخطر. خرج كأنما ليحضر دواء ناقصا من سيارته، نزل السلم ببطء، أسرع فى منتصفه، ثم هرول فى بسطة الثانى، حتى سمعت برطشة هبوطه. كيف امتلأت الصالة بعد ذلك بالواقفين، أمام باب العمليات الموصد بلافتة: ممنوع الدخول، فلم يراعوها ودفعوا الباب فى الوقت الذى كان يهم بفتحه للخروج، وهو يخلع قفازاته فى ذهول، امتلأت الحجرة الضيقة بالأهالى حول ترابيزة العمليات. انكشف ستر الحجرة. الآلات على الترابيزة، آثار الدم فى الماء الساخن بالأطباق يعطى انطباعاً بأن الطبق مملوء فعلا بدم المريضة. لم يعد بإمكان أحد من هذه اللحظة فصاعدا أن يسيطر على شىء. فتح غول الحكايات التى لاتنتهى فمه بأساطير، وانتاب الذهول الذين رأوا طبقى الماء المدمم للمرة الأولى فى حجرة عمليات لم تمهد لاستقبال أهل مريض انتهى لتوه من إجراء جراحة. إغماءات وانهيارات. لم يكن بوسعه ترتيب آلاته وحجرته حتى لاستقبال الناس، مثلما يفعل فى كل مرة، فيأمر الممرضة والشغالة بالدخول أولا، لإزاحة وتنظيف الدم الناتج عن القيصرية والمشيمة، تغطية الآلات والفرش الملوث بالدم، تنظيف المريضة وسترها بملاءة خضراء، رفع الأنبوبة الحنجرية، وإزالة المخاط من جانبى الفم، مسح دموع المريضة وهى تفيق لتقليل احتقان العينين، ونزع المحاليل وإغلاق الكانيولا تمهيدا لنقل الحالة إلى أهلها فى حجرة الإقامة. يبين قبل كل ذلك حركات ذراع المريضة، تألمها أو حتى صراخها والذى يسكت فورا حين تسرع خلفها الممرضة بحقنة المسكن، خطوات تتم دائما عقب كل عملية بمجرد إيماءة منه فلا يصدم مشاعر الأهل، يومىء لهم فى زهو وتواضع، حتى لو حدث ورأوا شيئا فإن مريضتهم التى تفيق الآن من التخدير وتهلوس بصوت عال وتحرك أطرافها

– يعطيه الحصانة، ويجعل لما يفعله قيمة باعتبارها من وجهة نظرهم عملية جسيمة وخطرة، يستأذنه الأقارب لإلقاء نظرة، فيومىء برأسه وهو يخرج بجسمه أولا من الحجرة:

ـ حمدا لله على السلامة.. اطمئنوا.. دقيقة واحدة وتخرج لكم.

لم يكن بوسعه وهو يفتح الباب أن يمنع اندفاعهم للحجرة، وقد بدا صوته ضعيفا أمام تيار هادر وغاضب جرح كل شىء، أصبح الأمر أشبه بستارة انفتحت فجأة على فرقة موسيقية لم تستعد ولم تنتظم، ليطلعوا فى حجرة عمليات غير ممهدة لاستقبال أحد على مريضة فارقت الحياة للتو:

ـ عزيزة .. ياعزيزااااااة؟.

ارتمى صامتا فى حجرة المكتب على الكرسى، واضعا يديه على صدره فى حالة ذهول. يرد على بعض العقلاء بكلام مقتضب، يتلقى الصراخ والشتائم، لايعى شيئا وهم ينظرون إلى قفازه المخلوع، وآثار الدماء على حذائه البلاستيك باستغراب، كأنه شخص ذاهل ارتكب لتوه جريمة قتل، فى حالة تلبس، من أين جاء كل هؤلاء الناس؟ لديه اطمئنان غريب بأنه لم يخطىء، وأن سببا آخر وراء موت عزيزة. تموت عزيزة لو لم تسيطر على النزيف من الشريان الرحمى، أو طالت العملية دون داع، وكلتا الحالتين لم تحدث. هذا هياج خارج المكتب، وهذا صوات يأتى من غرفة العمليات التى فتحت وامتلأت بالناس حول المريضة المسجاة، وهذه ضجة كبيرة قادمة من الشوارع التى امتلأت عن آخرها، كيف؟ لو لم يكن مطمئنا أنه لم يخطىء، لم تكن لتواتيه الشجاعة ليجلس هكذا وسط منهارين يصرخون فى هيستيرية. ولايحسب رد فعلهم.

ـ عزيزة؟ عزيزااااة!.

خرج الصوات من النوافذ، فالتقى بصياح الشوارع. ترش الملح فلا ينزل، حتى لو فكر فى النزول الآن كيف سيستطيع اختراق هذه الجموع المحتشدة بلبس العمليات الذى لم يخلع؟ بعد، هل فعل عمر مبكرا ما ينقذه

من رد فعل متهور لأهل المريضة؟ لم يكن بالمكتب فراغ سوى الكرسى الذى جلس عليه، يعتقد أنه لم يكن حتى بإمكانه القيام. مجرد القيام، وسط هذا الجنون برز رجل ملثم، بجلباب بلدى، صوته غليظ، فرد ذراعيه فى الهواء، حجز عنه الناس، وتكلم بصوت عال وعاقل، رخيم ومسموع وحكيم: ما حدث حدث، ولا فائدة من كل ما تفعلونه، إنا لله وإنا إليه راجعون، لفوا ابنتكم وخذوها. كيف هدأ الناس والتخموا فى لفها وإخراجها، وكان هو مايزال يتكلم ويشيح بذراعيه الطويلتين في أرجاء المكتب، كأنه يشرف على ما يفعلونه، وهو صامت على مكتبه، فقط تدور ذراعاه الطويلتان كمروحة، يتطلع إلى وجهه فيشير بعينه له أن يسكت، فلا جدوى من رده على أسئلة عبثية لايفيد الجواب عنها، والسائلون فى عصبية وانهيار لاينتظرون إجابة أو فهما. وقف أمامه ضخما وعريضا، يحجزهم، ويمنحه فرصة ليغلق رأسه قليلا حتى لاينفجر.

بدت جلسته الهادئة وسط هذه المعمعة أسفل ذراعيه موحية بأن الخطأ قد لايكون خطأه، وأن طبيب التخدير الذى اختفى ربما كان هو السبب، مما دفع زوج عزيزة إلى تبليغ النيابة، قدم شكوى مباشرة، اتهمه شخصيا بقتل عزيزة، خروجا على مافعله أهله من التسليم بقضاء الله وحكمه، بعد دفن الجثة بتصريح من المركز الطبى، بناء على تقرير تفصيلى كتبه.

كما رآه قديما فى حقول الساحل المنحصرة بين مجرى النهر والطريق المرتفع، رآه حقيقة، باسطا يده إليه، احتضنه فترقرق الدمع فى عينيه وتنهد معاتبا:

ـ لماذا كنت غائبا عنى قبل ذلك؟.

ـ ومتى غبت عنك؟.

ـ ألم تغب أربعة عشر عاما ولم أرك إلا أول أمس.

قال بنفس البساطة:

ـ كنت معك.

ـ أحقا ياشيخى.. كيف؟.

ـ من الذى كان يحوطك من الناس يوم ماتت عزيزة؟.

ـ الملثم؟.

ـ ومن تراه كان وكيل النيابة الثانى؟ ومن كان الطبيب الشرعى؟ ومن كان الذى يصلى عن يمينك فى السيدة؟

عاد ثانية إلى التائية:

أروح وأغدو فى الغيوب مسافرا محط رحال السالكين براحتى

وريح رخائى تحمل الخير للدنا أصيب بها من ترتضيه إصابتى

رفع القلم ونظر نحوه، كأنما رفعت الغشاوة عن عينيه، رآه جالسا أمامه، متكئا على حافة المكتب بجلبابه الأبيض ووجهه الممتلىء وذقنه النابتة. كملاءة

بيضاء طويت من أمام عينيه، بدت شمس الضحى صريحة خلف شرفة المكتب، وكان كما تركه عند الكوخ، وبدا هذه المرة أنه يريد أن يتحدث، وأنه غير متعجل، استفسر بمحبة:

ـ أكنت معى فى كل مامضى فعلا؟

ـ أو ترانى أترك وارثى ليسجن؟

كان الملثم الذى حجز الناس عنه، وكان الطبيب الشرعى الذى طمأنه، ووكيل النيابة الثانى الذى أطلق سراحه. تذكر غيبته القديمة عنه يومين، كان قد زاره وأمام باب شقته انتظر لحظة قبل أن يضرب الجرس. لم يفتح الباب كالعادة فرجع. فى اليوم التالى فعل ما فعل إلا أن الباب لم يفتح أيضا. حين أخذته الظنون رآه أمامه فى المسجد، فسلم بحرارة وسأله: أين كنت، فقال بمحبة وفرح ونشوة: كنت عند سيدنا، وكيف وجدته؟ قال: نور خالص، وبم عدت؟ قال: بسبعين منحة: ألا ينجذب مريدى، وألا يدخل الخلوة، وألا يرتدى الخيش أو الهلاهيل، وألا يسجن، وألا يجوع ولا يعرى ولا يدخل جسده شيطان، ولا يصيبه شلل ولا سرطان ولا باسور، وألا يرى نور نفسه فيصيبه الغرور، وألا تصيبه الغفلة، وأن يتمكن من قراءة ورق الشجر والماء والهواء والحب والنوى، وأن يقرأ ما هو مكتوب فى قبة السماء، وماهو مكتوب على الخلق والرزق، وأن يرث علما برواية وعلما بلا رواية، وأن يتجاوز توبة الهداية إلى توبة الخواص، وأن يتدرج من ذكر اللسان إلى ذكر القلب الى ذكر الروح إلى الاصطلام إلى المشاهدة، وأن ينتقل من نطق اللسان فى الظاهر إلى النطق بلسان الضمائر، وأن يتكلم بخفيات السرائر، فيقرأ من اللوح رموز معان دقت ويشرب من أوان رقت، ويخرج عن الكل فيكون مع قلبه، ثم يصير مع مقلبه، فلا حركة ولا كلام فلا يسمع إلا همسا، وأن يتقرب فيصير جليسا، ويستمتع بالمجالسة والمحاضرة والمشاهدة والمؤانسة، فتفتح له خزائن مملوءة بالأسرار والأخبار والمكنونات، ويصير من أولى العطاء، ويكشف عنه الغطاء، ويأتنس بالحقائق فيكون من أولى السعادة، وأن يمنح

توبة الخواص عما خطر له واختلج فى أسراره، وأن لا يموت كما يموت الناس، مرض فعيادة، إنما ينادى فيجيب .

- أأرثك؟ أنا؟!

- نعم .. أنت الوارث .

ألهذا طلبه؟ ولهذا يجىء؟ تتحرق نفسه شوقا إلى أيام الصفاء والشفافية الأولى، إلى الجلسات الطويلة والتحديق فى ماء النهر عند انحناءته التى يتجه فيها شمالا نحو المدينة، وتأمله فى جزيرة الموز ملك أولاد فهمى بوسط النهر، لكنه لم يصدق ولم يخطر بباله أن يرث شيخه. قال له إن الواردات الإلهية قلما تكون إلا بغتة، صيانة لها عن أن يدعيها العباد بوجود الاستعداد. هل يختاره الشيخ وارثا بالفعل؟ ليست حياته بيضاء من غير سوء. هو مهمل ومستهتر، أضاع زمنا من عمره وفرصا كثيرة. جالت بخاطره علاقته بعائشة وانتصب الولد الذى حمل اسم أبيه أمامه حائلا، فدمعت عيناه:

- تعلم ياشيخى أننى أنا لست أهلا لذلك .

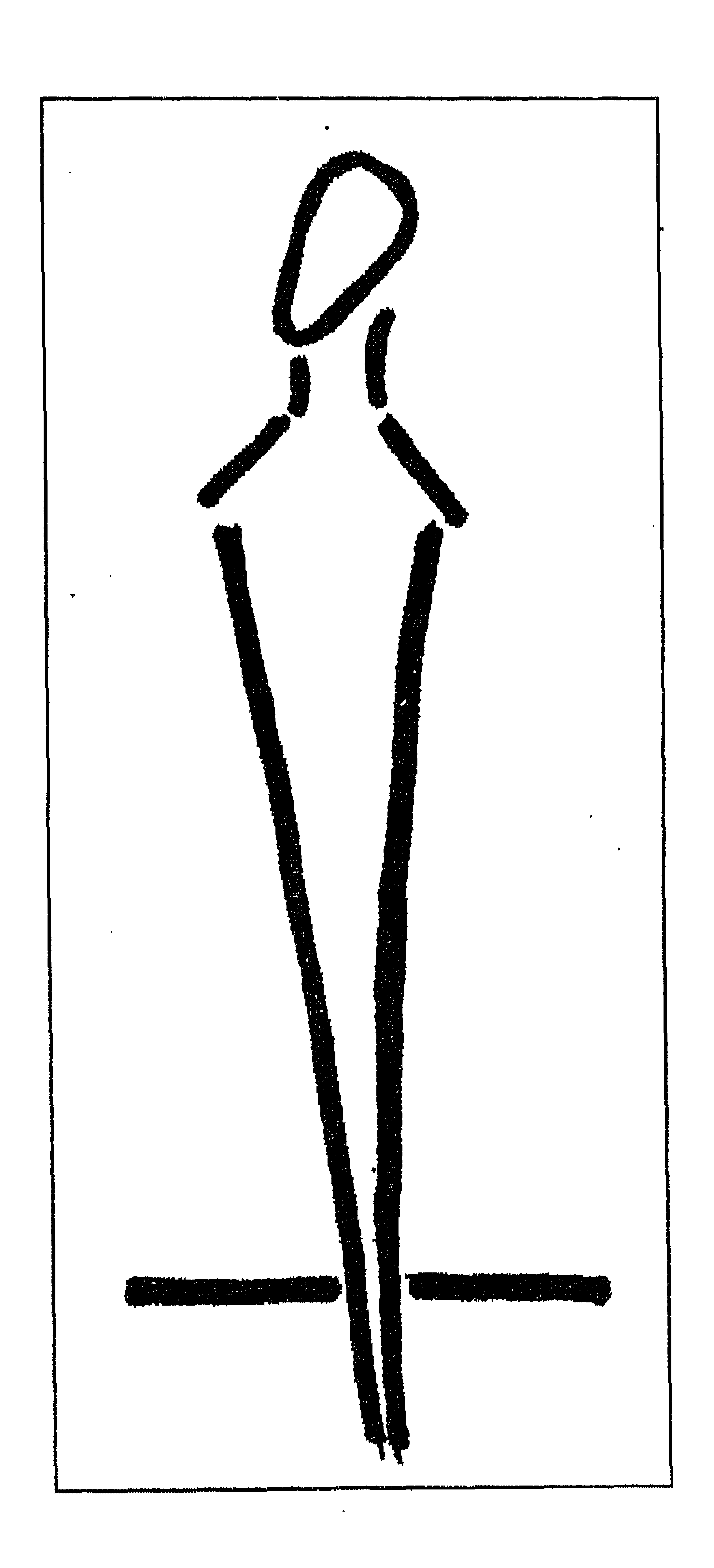
- هذا عطاؤنا، فامنن أو أمسك بغير حساب .

- ياشيخى .. ذنوبى عظيمة.

- محوناها بفضله ومغفرته .

احتار، إذا كان شيخه معه، فلم تركه إذن يرتكبها من البداية؟ لم لم ينقره؟ جاءه صوته حاسما :

- وما فعلته عن أمرى .



كان قد اتخذ القرار: أن يظل يضرب رأسه بالحائط بعنف حتى يتحطم الوعاء الذى لم يستطع أن يفرغه من طيف عائشة الذى ظل يطارده لتسعة أشهر حتى فى الصلاة فيخرجه من جامع البحر. يستدعيها رأسه من غيبتها البعيدة، يتتبعها وهى تكنس السطح وتؤكل الطيور وتلم الهدوم، يختلس النظر من بين صفحات الكتاب إلى صدرها المتحرر حين تقوم وتنحنى وتجلس وهى تجفف بطوق الثوب الأبيض القديم رقبتها الغارقة فى العرق ووجهها الأحمر كالكبدة. تنتهى فيرهف السمع إلى ارتطام الماء بجسدها وهى تستحم، وهى تجفف جسدها من الماء وتستلقى فى السرير على ظهرها، حيث يكون ثدياها نافرين خلف قميصها الأسمر، وشعرها محلولا حول وجهها المستدير الأبيض، تظل ساهمة تنظر فى عينيه فلا يدرى من الذى يراود من، وحين يصل إلى الصرخة المكتومة والضمة المرتعشة، يشده الواقف بجواره عندما توشك الركعة الثالثة أن تنتهى وهو مازال يهز سبابته فى التشهد .

صار لا يقرب الصلاة، ولا يدخل جامع البحر. تنطلق شياطين جسده من معاقلها لأدنى حركة لعائشة. مجرد نفضها لمؤخرتها من طول الجلوس على الأرض، أو تمطيها متثائبة وهى تضع الأرز جانبا لتكمله فى اليوم التالى، أو هدهدتها لأطفال الجيران وهى ترطب بريقها حلمة البزازة قبل أن تضعها فى أفواههم. تؤجج الشياطين جسده، فيجرى إلى السرير حتى خيل إليه أنه

يعيش فى جنابة دائمة واحتلام متواصل. هل لاحظ أحد شيئا؟ سأله أبوه ما الأمر؟ قال: أى أمر؟ فأشار إلى تغيره وانفلات أعصابه وميله إلى العزلة. وسأله أخوه فى إجازاته الشهرية بدون عائشة فلم يجب، وبالغ فى عدم السؤال عنها خشية أن يفتضح أمره، أو يكون سؤاله بداية لمواجهته بفعلته، حتى الكلام المعتاد كان يتجنب التورط فيه معه، فقط يلتقط أخبارها حين تجئ عرضا فى الحديث. هل باحت لأخيه فمنعها من المجيء؟ فى موعد الإجازات يظل بحجرته العليا قلقا، يحدق من الشباك، يتلهف أن يراها داخلة معه، لكنه يجئ وحده، فهل باحت له؟ قال أخوه وهو يسلم عليه مستفسرا عن تغيره: ما الحكاية؟ فهل باحت له؟ ثمانية أشهر وهو يستدعيها من غيبتها المفاجئة، فلا يفارق وجهه ثدياها، ولا يداه حلق الثوب الذى قده، حتى تهز بدنه تلك الارتعاشة التى يخلد بعدها إلى نوم عميق ثم يصحو على نفس المشهد.

ثمانية أشهر ، بعدها قال لأخيه: لماذا لم تأت عائشة معك؟ قال إنها تعبانة. جن جنونه. كان يريد أن يذهب إليها فى عنوانه. يفتعل الزيارة ليعودها فى مرضها. قال له بانفعال: لماذا لا تأتى لتكون بيننا، نراعيها فى مرضها؟ قال أخوه بصبر: شهر وتبدأ الإجازة ونعود بطبيعة الأمر. كاد الجنون يقتله. لا يصدق أنه الذى فى المرآة. ما هذا الهزال ؟ سيموت حتما. وشهر كثير جدا وطويل ولن يتحمله. شعر أنه يكره أخاه بالفعل، ولم يشعر بذنب وهو يفتعل له الحوادث السيئة والمصائب القدرية، كى تعود عائشة إلى حضنه، ويخطط كيف يراها لأطول وقت ممكن، فيما لو فشلت الأقدار فى إزاحة أخيه من أمامه. كتب خطابا باسم الأب إلى الشركة يستعطفهم بنقل ولده إلى مكان قريب، يتمكن أن يسافر إليه يوميا ويعود. دون أن تكون به حاجة إلى أن يأخذ عائشة معه. عدل عن إرساله إلى الشركة وأرسله الى برنامج «همسة عتاب». انتزعت الموسيقى المؤلمة الدموع حتى قبل أن يقول الصوت المتهدج: أنا ياحضرات المستمعين أب مسن، ماتت زوجتى من زمن

وتركتنى فى الدنيا مع طفلين كالقطط المغمضة، ربنا قوانى وربيتهم، الكبير موظف فى شركة الأسماك، والثانى طالب فى الثانوية العامة، وكانت حياتنا عال العال، لحد مانقلوا الكبير إلى فرع الشركة فى أسوان، ومن يومها ياحضرات المستمعين وحياتنا أصبحت جحيماً، لأن الكبير أخذ زوجته التى ملأت علينا البيت وأنستنا وفاة المرحومة ، وأنا يا حضرات غير مهم ، فأنا أخذت حظى من الحياة ، إنما خوفى كله على الصغير ، سيموت حتما يا حضرات المستمعين ، لذلك أناشد السادة المسئولين بأن ينظروا إلينا بعين الرحمة وينقلوا ابنى إلى فرع للشركة قريب ، ليس مهما فى مدينتنا ، إنما يقدر يروح ويجئ منه فى نفس اليوم ، من أجل أن يرعانا أنا وأخاه .

لم يذكر فى الخطاب شيئاً عن فرع الشركة فى المدينة ، فتتاح له على الأقل فترة النهار ، ولن يفعل شيئاً أكثر من أن يجلسها أمامه ويظل ينظر إليها ، اقترب الموعد ، وجاء أخوه وحده ، زعق فقال أخوه إنها ستجئ الأسبوع القادم . صرخ بحدة : ولماذا لم تحضرها معك ؟ هل قالها بغلظة ؟ هل قالها بحدة ، حتى يضربه أبوه كل هذا الضرب المبرح وهو لا يشعر؟ يضربه ويقول ، إنه لم ير أخا يعامل أخاه بهذه الغلظة ، وقال وهو يضربه : ما الذى غيرك ؟ تدخل الجيران ، حالوا بينه وبين أبيه، وهو صامت يحدق فيه كأنه لا يشعر بالضرب . يحوشه الناس فيضرب أكثر ويصرخ :

– ما الذى حدث لهذا الولد ؟ هل جن؟

يحدق نحوه كأنه يتحداه . بالغ فى ضربه ، فلم يبك ، ارتخت ذراعه وهمدت ولم يبك ، فبكى هو واحتضنه :

– ما الذى حدث ؟ ما الذى حدث ؟ استغفر الله العظيم .

كان صامتا لا يرد ، مندهشا ، ألجمته المفاجأة ، شلت تفكيره فظل صامتا لا يتحرك ولا يجرى ولا يهرب ، لم يضربه قط بهذا العنف وهذه القسوة ، لأنه عامل أخاه بما لا يليق بأخ أكبر . انحنى الأخ على يد أبيه وقبلها وقال إنه سامحه ، وظلت يده ترتعد ، حتى ذهب إلى عمله فى

الصباح، وفتح بذات الذراع المرتعدة طريق المخازن أمام قطار زفتى ، بدلا من الطريق الطوالى .

صدم فى هذا اليوم مرتين ، فقد مات أبوه حتى قبل أن يجيب عن السؤال الأول فى التحقيق ، وعادت عائشة من أسوان بآلام الولادة ، وهو يسير بكتفه أسفل نعش أبيه ، كان قد اتخذ القرار . كان يخبط رأسه فى جدران المقابر فى صمت ، انتبه المشيعون على الطرقات المتتالية والمكتومة والدم النازل على الوجه ، فحالوا بينه وبين الجدار ، ودمعت عيونهم ، وهم يمنعونه :

– لا تكن كافرا .. ما تفعله لن يعيد الذى راح ..

منعوه . فالحى أبقى من الميت ، لكنه كان قد اتخذ القرار ، فامتنع عن الطعام ، وأرهق جسده بالسهر ، والتزم غرفته لا يبرحها ولو إلى مسجد البحر . كما هزم الجسد ، انشغل بهزيمة الرأس . انكب على المذاكرة ، يقرأ كل شئ ، يحفظه. الحفظ عقوبة الذهن . استظهر عمليات حسابية معقدة ، ودليل تليفونات المدينة ، وحفظ كم حبة فى كيلو الأرز والسكر والقمح . كان قد اتخذ القرار ، ألا يترك عقوبة فيها إرهاق للذهن أو إجهاد للجسد . ظل يخنق حتى انطفأ كل شئ ، وظهرت نتيجة الثانوية العامة ، وعادت عائشة كما كانت من قبل ، تروح وتجئ فلا يراها ، وأصبحت فى حجرتها المجاورة بعيدة ، كأنها فى أسوان مع أخيه . وفى طب عين شمس ، زاد البعاد ، وعادت عائشة التى يقابلها مع أخيه كل أسبوعين عائشة أخرى غير التى فى المشهد ، فقط كان يختلس النظر إلى ابنها ، فلا يستطيع أن يتبين إلى من تنتمى أكثر ملامحه ، إليه أم إلى أخيه؟ وحدها عائشة ربما التى تعرف .

كان عبد المجيد يخرج من حكاية ويدخل في أخرى . يأخذ من هذه لتلك ، ويميت أشخاصا هنا ويحييهم هناك ، غير أن حكاية الكنز وحدها - دون كل ما يهذى به عبد المجيد - ظلت الأثيرة لديه . يسردها بلا تحريف ، ولا يبدل من أحداثها شيئاً مما اعتاد تبديله .

وقد ظل الملك الذى احتار فى أمر من يرثه ، يبكى طوال الليل لأربعة عشر عاما طالبا من ربه أن يهبه الذرية ، حتى تصادف أن كانت أبواب السماء مفتوحة ، ومنحه الله طفلة جميلة ، فكتب على بوابة القصر:

ملك الملوك إذا وهب   لا تسألن عن السبب

حزن وزيره الذى كان قد رتب لنفسه الانفراد بالحكم ، فلجأ إلى كبير السحرة ليخفى الأميرة. ثار الملك وأقال رئيس الشرطة، والحرس الخاص بالأميرة ، وخادم الملك ، ورصد المكافآت لمن يدلى بمعلومات عن الأميرة ، فاجتمع في القصر فاتحو المندل بقارئى الكف وضاربى الرمل وقارئى الطالع ، قالوا إن الأميرة محبوسة ببئر عميق ، وقد عقد قرانها على الجن الأرضى ميمون النكاح ، ولا يفعل ذلك إلا من توضأ باللبن وصلى عكس القبلة وقرأ القرآن بالمقلوب، ثم تلا قسم ميططرون ملك الأرواح الروحانية الأبرار، الساكنين تحت عرش الملك الجبار، الساجدين لله الواحد القهار ليأمر خدامه وأعوانه الميامين السبعة الأرضيين بخطف الأميرة وتزويجها من ميمون النكاح.

اجتمع الفلكيون بدارسى الزايراجة وعلماء الأبراج وحساب المثلثات والدلالين، لكنهم فشلوا فى تحديد البئر أو إعادة الأميرة. أرسل الملك فى طلب ممتهنى الوشوشة والتنويم المغناطيسى والمخاوين من البلاد، ومن الهند خبراء اليوجا ودارسى أسفار سليمان ومزامير داود، واستقبل شماسين وكهنة، لكنهم كانوا يخرجون كما يدخلون، فقال : دبرنى أيها الوزير، فأتى إليه بكبير السحرة، الذى نصحه بتحويل قصوره ومقتنياته إلى كنز يرصده للأميرة، واقترح أن تكون مدة رصد الكنز مرهونة بظهور الأميرة، ومنعا للاستغلال من قبل أى ساحر، وضع أنابيب الزئبق الأحمر لتطيل الشمة الواحدة منه عمر الجن المكلف بحراسة الكنز مئة عام، وختم عليه بطلاسم لايفكها ساحر غيره، وجعله ينتقل حتى من زمن إلى زمن، ومن مكان إلى مكان مخبوءا عن الأنظار، مرة فى قاع بحر ومرة فى مدافن غير مسلمين، ومرة فى قصر الملك نفسه، وأخرى فى الطريق هكذا دون أن ينتبه الناس إليه.

رأى الوزير أن الملك يصر على الاختلاء بكبير السحرة دونه، فخشى أن يبوح للملك بما حدث ، أو أن يتراجع فيخرج له الأميرة، فأصدر الوزير أوامره السرية، فعثر على كبير السحرة مقتولا خارج القصر. عاد السحرة مرة أخرى إلى القصر، فأحرقوا خمسين ألف مثقال من البخور والعود والصندل، وغلوا ألف أوقية من الرصاص، ثم أجمعوا على أن الكنز لن يفتح إلا فى موعده المحدد. لم يغلقوا الباب تماما، لكنهم أجمعوا على أن الكنوز المرصودة كلها تظل ليلة واحدة كل عام دون حراسة، هى ليلة القدر. أمر الملك الرعية بالخروج فى هذه الليلة إلى الخلاء، والتحديق فى الأراضى والطرق والجدران القديمة والصحراء ، غير أن الكنز لم يفتح .

عقب كل مرة يروى فيها عن الكنز ، كان عبدالمجيد يتأمل واضعا يديه خلف ظهره طويلا فى مكان ما، يدور حوله، ثم يجلس على عقبيه ويعبث فى الأرض بيده، ثم فجأة يحفر بالفأس بهمة قاذفا بالتراب خارج الحفرة، وحين

لا تظهر يداه المرفوعتان من الحفرة الواقف فيها، يفتر حماسه، فيصعد مجهداً وهو يبصق على أولاد الوسخة الذين نقلوا الكنز في اللحظة الأخيرة. وصل شغفه بالحفر مداه حين كان يلازم رجال الحفر في شبكة المياه والتيلفونات والكهرباء، يقف شاردا لفترات طويلة ، يطيل التأمل، ويقفز أحيانا ليساعدهم في الحفر، حتى ملوا من وجوده ومنعوه، لأنه يحفر غالبا بمزاجه، وفي اتجاه غير ما يسعون إليه. أخذ يلح عليهم، بالوقوف فقط، لكنهم منعوه حتى من الوقوف، فظل حزينا لا ينام من السبت إلى السبت. يقظة مطلقة. في السبت الأول أخذ يدق بكفيه حوائط الحمام المظلم ويزعق . أخرجوه وطلبوا الطبيب، فاستغفلهم وأشعل الموقد وظل يحدق في النار بذهول الاثنين والثلاثاء . أخرجوه عنوة إلى سريره، وأحضروا إلى جانب الطبيب المعالجين بالقرآن، فاستمر كبندول الثلاثاء والأربعاء ينام ويقعد بلا راحة في نوم أو قعود. أغلق الطبيب حقيبته والمعالجون بالقرآن مصاحفهم واتفقوا على أنه سليم. ظل الخميس والجمعة متكورا في سريره كقنفذ يحدق في فتحة الباب ويصرخ: سأموت . وصف الطبيب مهدئات وقال : لا تطلبوني مرة أخرى من فضلكم، لكنه رفض الاستحمام بماء الرقى أو فتح فمه للعلاج. السبت الثاني، بينما كان الطبيب الذي في عيادة أندراوز يغلق حقيبته بملل مكررا وهو يضغط مخارج الحروف إنه سليم، مات عبدالمجيد.

تنهد إمام الفنجري في الفناء وهو يتساءل :

– ألا تعرفين لماذا مات عبدالمجيد ؟

– لماذا ؟

– لأنه حاول فتح الكنز دون أن يحصن نفسه .

– منذ عرفته وهو يبحث عن كنز ، فما الذي جدَّ في الأمر حتى يموت؟

قال إمام إنها لا تعرف أنه في كل مرة كان يحفر بعيدا عن الكنز، لكنه في المرات الأخيرة كان يصطدم به، ولأنه لم يحصن نفسه جيدا كان لابد أن يؤذى من حراس الكنز. وعرض عليها إن كانت تريد مساعدة. قالت شكرا،

فخرج، استوقفته على البوابة الخشبية من الداخل العبارة المحفوزة: ملك الملوك إذا وهب.. لا تسألن عن السبب، فنظر إليها قائلا :

– إذن شدى حيلك .

رنت إلى خارج البوابة الخشبية، فلم تجد الحصان. بكت وهى تنشر ثياب الموت على حبل فى فناء بيت من حجر، بطابق واحد أصفر حائل، معرش بكمر حديد وعروق من الخشب المصرى، أشبه بفنائه الواسع وحوض المياه فى المنتصف والبوابة الخشبية بطاحونة قديمة. حجرة عبدالمجيد ذات شباكين، أحدهما على الفناء والآخر على الخارج، ملحق بها حمام ومطبخ. البيت بأكمله من حجر، والأرضية من حجر، كأنه وكالة أو مدرسة. حجرات البيت الأخرى لأروى وراشد، تطل على الفناء، ويبطن أرضيتها خشب الباركيه، ولها شبابيك طويلة وعتيقة على الشارع محاطة بكرانيش . قال عبدالمجيد إن البيت كان فى السابق مبرة، وكان مدرسة، وقال إنه كان استراحة، وكان بورصة للقطن والموالح، وقال أيضا إنه كان شونة لتخزين الغلال، وكان البيت بهيئته يوحى بتقبل هذه الروايات دفعة واحدة، وبالرغم من أن عبدالمجيد كان يهذى، فإن هذه البوابة الخشبية هى التى شهدت ضربه للحاج أحسن ستة عشر بلغة مدهوكة بالخراء وهى التى نخ الحصان البنى أمامها كجمل ولم يواصل السير من يومها ، وعلى المصطبة التى فى الفناء رقد راشد على حجر عبدالمجيد بعد موت أمه يستمع إلى حواديته، ثم رقد مرة أخرى مكبلا بالرجال والجيران عليها فى ثانية إعدادى حين مسه الجان، وفى وسط الفناء شق عبدالمجيد جلبابه، وخبط صدره العارى وهو يشتم العفاريت ويهددهم .

تساءل محمد البيه بجسمه النحيف وصدره الذى يخرفش من الربو، وهو يضبط طاقيته الصوف الأشبه بطربوش على رأسه الدقيق :

– كم يوما مرض عبدالمجيد ؟

– من السبت إلى السبت .

فاتكأ على المصطبة بالفناء ووضع يده الرفيعة متفكرا أسفل عظم خده البارز ثم سألها:

– وهل جاء هنا إمام الفنجرى ؟

– جاء مرة بالطبيب وجاء مرة للعزاء .

فخبط كفا بكف :

– إذن هو الذى فعلها!

– فعل ماذا؟

مثل كل الفنجرية، كان إمام عديم الأصل، لا يهمه سوى القرش. خلق كى تعصب عينه ويعلق الخرج فى كتفه، ويردد المدائح النبوية، ولأنه أعمى القلب، ولا ينظر إلا تحت قدمه، فإنه قبل مجيء الفرج ببرهة غالبا ما يقنط ويتحول إلى مهنة أخرى. فعمل طبالا ثم مسحراتى ثم قارئا للبخت. قطع فى سبيل تحويل التراب إلى ذهب تسعة وتسعين خطوة، وفى الخطوة الأخيرة ضرب قالبين من الطوب الأحمر فصرخا وانبثق الدم منهما، عندها فهم أن نهاية سبيله الدم، فتوقف ولجأ إلى الأسهل، البحث عن الكنوز، معتمدا فى تحديدها على قسم البرهتية الخاص بهارون أخى سيدنا موسى، وقسم الجلجلوتية الخاص بسيدنا علىّ. قرأ بعض القراءات على سبع بيضات كتب عليها الطهاطيل السبعة، فاتجهت كلها نحو مكانه بحائط سميك يفتح بشباك جهة الشرق، وأنه مرصود بأمر من مهطهطيل، ملك يوم الاثنين بالسريانية وبالعربية جبار، وأمر من العون الأرضى مرة لنفس اليوم، لكنه لم يتوصل الى فك الطلاسم التى استخدمت لرصد الكنز، فتكحل بعينى ديك ظل يشرب من مسقاة رصاص حتى احمرت عيناه بلون عرفه، وكان قد كتب على بيضته قبل الفقس لمقفنجل، الحروف الأولى للطهاطيل السبعة، ثم رقدت على البيضة دجاجة لا تشرب سوى من مسقاة الرصاص. ذبح إمام الديك وتكحل بعينيه فرأى الأرواح العلوية، ثم تكحل بمرارته فرأى العوالم السفلية، وتكحل مرة ثالثة بدمه ليرى الكنوز المخبأة، فاطلع على محتويات الكنز واطلع على طلاسم الكنز فقرأ: «وكان تحته كنز لهما»، وفأراد ربك أن يستخرجا كنزهما»، و«حتى يبلغا أشدهما». لكنه لم يستطع فتح الكنز، ورأى

عبدالمجيد أمامه فى كل خطوة، فذكر اسم الله المميت على ٥١٢ نواة من التمر ست مرات على كل نواة، وشكل النوى بهيئة عبدالمجيد . ثم صلى عليه صلاة الجنازة، كي يموت بعد أسبوع .

سعل البيه ووضع يدا على صدره ويدا على الطاقية وخرج بظهره المحنى ثم بصق قبل أن تستوقفه العبارة المكتوبة على البوابة الخشبية، فقال : ومتى كتبت هذه أيضا؟ ثم التفت وقال: لو قرأها إمام لعرف أن الكنز لن يذهب إلا إلى صاحبه، غير أن عمى البصيرة يورد الناس موارد التهكلة. فكلاهما رأى الكنز، وكلاهما رأى الحراس حوله، وفيما تحين عبدالمجيد غفلة الحراس للانقضاض،، فعل إمام فعلته .

كان البيه لا ينطق بغير الحكمة منذ لبس هدومه بالمقلوب ونام على خشبة غسل الموتى سبع ليال، معتزلا الناس فى غرفة صنع بابها من خشب نعش قديم، وطالت عزلته وهو يطلع على كتب ومخطوطات قديمة، فلم يأكل إلا مما تنتجه الأرض، وابتلى بالانحناء والربو والصرع ونوبات الصراخ الليلى، واجتاز اختبارات عسيرة قبل أن يمتلك قراءات وتعاويذ تمكنه من إشعال النار - لو شاء - فى بيوت خصومه، وإصابتهم بالأمراض وتعذيبهم بحبس البول وإبطال النوم وتسليط الهموم والأحزان عليهم، ورجم ديارهم وإخراجهم منها أو من المدينة كلها، وتسليط الصداع عليهم وإصابة عيونهم بالرمد. تخطت شهرته المدينة إلى أقاليم مختلفة، وصار رواده من خارج المدينة ينامون ليلتين فى العراء أمام غرفته انتظاراً لدورهم فى الدخول، حتى استعانت المباحث بخبراته فى الكشف عن الجناة والإرشاد عن أماكن إخفاء المسروقات، وأمرت السلطة بإذابة تعاويذه فى الماء، وكلفت الجنود برشها على آلات الحرب فلا تخطىء وتلاوة تعاويذه قبل الرمى ليتمكنوا من إصابة الهدف، وبمعونته فكت الأسرى وخلصت المسجونين، وكان البيه من غرفته المنعزلة عن المدينة باستطاعته تهدئة البحر وتذليل الدواب ومنع النوم أثناء ركوبها وعدم التعب من المشى والحماية من قطاع الطرق والسباع الضوارى والوحوش.

عشرات المرات، كانت عائشة تخرج وتدخل من أمامه كل يوم. يعين عليها دست المياه، ويأكل معها، ويوصلها في الظلام إلى الحنفية العمومية، ويطلع معها إلى السطح لتقشير الذرة ووضع الجبن في الزلع، ويحل معها مسائل الحساب، ويضربها، ويشتمها في بيت من الحجر يواجه النهر، لا يفصله عنه سوى الطريق الذي رصف أخيراً، يمينه حجرتان ويساره حجرتان، بينهما مدخل ودهليز يفصل بينهما باب الوسط، ثم السلم الحجري، تحته دورة المياه، ثم زريبة كبيرة بعرض البيت من الخلف، وفرن الخبيز البراني. عشرات المرات يومياً، كانت عائشة تطلع وتنزل، وتجيء وتروح أمامه في هذا البيت الحجري المملوك لأخوين بأسرتيهما، ولم يكن أمامها من ثم سوى أن تنضج لتتزوج أخاه الأكبر، وتنتقل فقط من الجانب الأيمن من البيت إلى مقعدين بنيا على عجل فوق الزريبة في مؤخرة البيت. ولم يكن عليه سوى أن ينضج ويكون في الثانوية لكي يفصل مقعده الذي بني على حجرة أبيه عن مقعدي عائشة سقف ترابي وفتحة السلم الحجري. لم يحدث شيء - حتى اتكأت على مقشتها لتستريح من تنفيض وكنس مقعديها ومقعده وتنظيم فراشه - سوى أنه انتبه إلى عائشة أخرى غير التي يعرفها، بيضاء مثل بطة منتوفة، في ثوب قديم ابيضت زهراته الصغيرة، ضاق عليها عند الصدر أو سمنت قليلاً فتمزق من تحت الإبط وأمام الكتف، فقال لها لأول مرة: شكراً فضحكت حتى اهتز جسدها، هي التي لم تكن تعلم أنها صارت

عائشة أخرى، أحلى كثيراً، وأروع، يحاول الثوب القديم دون جدوى أن يمنع جسدها من البروز حين تتكلم بتلقائية أو تحرك ذراعيها وتميل برقبتها المعروقة لتجففها بنفس الجلباب، فيهتز ثدياها ويبرزا كلما ضحكت أو مالت إلى الأمام واتكأت على مقشتها ويشف الثوب الخفيف عن حلمتيها الغامقتين. لم تكن بهذه الحلاوة حتى فى فستان الفرح الذي لبسته فى حجرة أمها وجلست فى كوشة جنب أخيه أمام باب البيت. فيما صارت نظراته مختلفة، كفت عن الكلام التلقائى. صارت تسمع فقط ولا تتكلم، تؤمن على كلامه برأسها وعينيها اللتين اتسعتا أكثر من أى وقت مضى، ووجهها الذي ازداد استدارة وبياضاً. عائشة أخرى بضة، يؤطر رأسها إيشارب قديم، فتبين أسفل حافته خصلات شعرها المبتل بالعرق. توقف الكلام واستطالت النظرات. قال متلعثماً: فيما كنا نتكلم؟ فلم ترد. فقط ابتسمت ونظرت بعينين ناعستين لأسفل، وأتت الحمرة على وجهها ورقبتها وانتقلت السخونة من كفها القابض على المقشة إلى جسده. كيف تجرأت يداه – متجاوزة كل الحدود – وأحاطتا بحلق الثوب القديم وقدتاه نصفين ودخل بها مقعده وظل يجوس بوجهه فى صدرها ويدس أنفه فى إبطيها متتبعاً تلك الرائحة الغامضة؟ ومتى تلاشت القيود فصار العدوان التحاماً وتعلقت بذراعيه مغمضة فلم يدر من منهما الذى كان يرتعش ومن الذى صدرت عنه كل هذه السخونة وكل هذا الخوار؟ كمن يستيقظ من حلم، لم يصدق حين فتح عينيه فى الصباح على القفلين ببابيها أن تكون قد ذهبت مع أخيه إلى أسوان.

يرتسم هذا المشهد الوحيد فى رأسه بحذافيره وتفصيلاته الدقيقة، وسيتعمد فيما بعد أن تكون المرأة التى سيتزوجها بنفس المنظر، وسيظل فى عنفوانه وانطلاقه معها كلما لبست جلباباً قديماً ونظيفاً وفى ذات الوقت ضيقاً قليلاً، وستظل لسبع سنوات لا تعرف لماذا يمزق حلق ثوبها ويقده نصفين وهى متكئة على عصا المكنسة وبها حبات العرق على حافة السلم

قبل أن يجذبها إلى حجرة النوم، وكلما تسأله مستغربة لا يجيب.

عائشة التى فى أشهر أرقه كان يستدعيها من غيبتها البعيدة على ذات الفراش فتطاوعه ولا يفارقه طيفها، رجعت عائشة عادية تماماً كما يعرفها، وإن ظلت ملامح المشهد متمثلة فى رأسه كمشهد ناتىء. تراه فتنزع ثديها من فم سماء وتدخله حتى يمر، وتخفى بشكل وهمى طوق جلبابها - إن جمعهما حديث - فلا يبين صدرها. تمرض فلا تجعله يفحصها، تكتفى بالشكوى ووصف العلاج دون كشف، وإن زاد المرض فالفحص من فوق الهدوم، وإن رقدت مرغمة تحت وطأة المرض الشديد فإنه عندئذ يكشف أى جزء فى جسمها دون تحفظ، وعند الصدر تحديداً يشعر بالمقاومة، وحركتها اللاإرادية تجذب الهدوم لتحت. ولولا زوجها لما ولدها سماء آخر العنقود حين أقسم ألا تدخل بيته قابلة وأخوه طبيب، وحذرها أن تظل كما فى نجلاء تخبىء الألم حتى تنزل البنت وحدها فيحدث النزيف الشديد. ذكرته بأن القابلة التى أقسم عليها هى التى ولدتها مرتين، فصفق الباب:

- لكنه لم يكن قد تخرج بعد.

فيما كان الفرق شاسعاً بين صدرها الذى فى المشهد وصدرها الذبيلم تكن تريد أن يضع سماعته عليه، تساءل فى نفسه إن كانت هى التى فى المشهد أم عائشة أخرى، ولمئات المرات سيظل يحسب لعله يخطىء المدة بين المشهد وسفرها إلى أسوان ومولد الولد، لكنه سيجدها ولمئات المرات تسعة أشهر بالتمام والكمال، وسيظل كلما رأى ابن عائشة يتساءل فى حزن وأرق: ابن من منهما ذلك الولد البكرى الذى سارع أخوه وأطلق عليه اسم الأب؟

انزرع اسم وانخلع اسم، جاء أبوه ومات أبوه، ربما كانت ذات اللحظة، وربما كان المتسبب فى الوفاة هو نفسه المتسبب فى الميلاد. كأنما انطفأت الشهوة بعد هذه اللحظة تماماً، عادت عائشة إلى وضعها القديم، وإن لم يغب وضع المقشة والثوب القديم، ولم يفارقه مشهد القد حتى وهو مشغول بالدراسة أكثر من أى وقت مضى.

- ذنبى ثقيل ياشيخى.. لا تمحوه مغفرة.

- ذنبك الذى تقصده محوناه بإذنه.. ألم أقل لك؟

- كيف.. أريد أن أفهم؟

- ألم أقم عليك الحد؟

- لا..

- والمائة جلدة التى ضربها لك أبوك؟

- معقولة؟

أجهد ذهنه فى التذكر. اعترض على أخيه لأنه جاء من أسوان وحده بدون عائشة، فسحب أبوه الزخمة الجلد - لا يذكر من أين - ولسعه مرتين كى يتكلم بشكل لائق عندما يتكلم مع أخيه الأكبر. وبدا كأنه سيكتفى، لولا أنه لم يرد، وزادت نظراته النارية حنق أبيه الذى اعتبر صمته استهانة، ونظراته متبجحة، فظل يضرب بسرعة وبقسوة وجنون وهو يلهث غير أنه لم يفتح فمه ربما من المفاجأة، كأن الضرب فى أحد آخر. كان يضرب كأنه ينتظر ثورته - التى لم تحدث - حتى يبرر ضربه العنيف. يحوشه الناس فيضرب بقسوة وسرعة. ولما تركوه وتراجعوا، خفت ذراعه حتى بطأت تماماً، ثم نهنه كطفل صغير رامياً العصا بالسير الجلدى، وأخذه بالحضن:

- يابنى انطق.. قل كفاية.. قل خلاص.. قل أنا برىء.

عندئذ فقط بكى، ليذهب الأب إلى عمله فى اليوم التالى مضطرباً، تؤلمه ذراعه اليمنى، فيفتح بنفس الذراع سكة المخزن للقطار الطوالى بسرعته.

- أكنت معى؟

- ومن تراه الذى كان يضرب؟

- وابن عائشة؟

- إنه ليس من أهلك.

استراح. كان مشهد قد الثوب فى رأسه ما يزال يؤرقه. الآن زال عنه الهم. سبحانه غفار الذنوب، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء. رحمته أوسع

من غضبه، وهو أرحم الراحمين، يقبل التوبة عن عباده. طلب أن يقصد وجهه وألا يفكر فى سواه وأمره بصوت حان:

- اتق الله حق تقاته.

هل يكون الأمر فوق استطاعته، أن يذكره فلا ينساه وأن يشكره فلا يكفره، وأن يطيعه فلا يعصاه. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. لم يرد انتظاراً للتخفيف، فقال شيخه بلوم:

- اتق الله ما استطعت.

لم يرفض ولم يقبل. هل يتعهد بوعد سيكون الإخلال به ذنباً عظيماً. لم يرد منتظراً التخفيف. أخرج سيفه من غمده وزعق:

- اتقوا الله ويعلمكم الله.

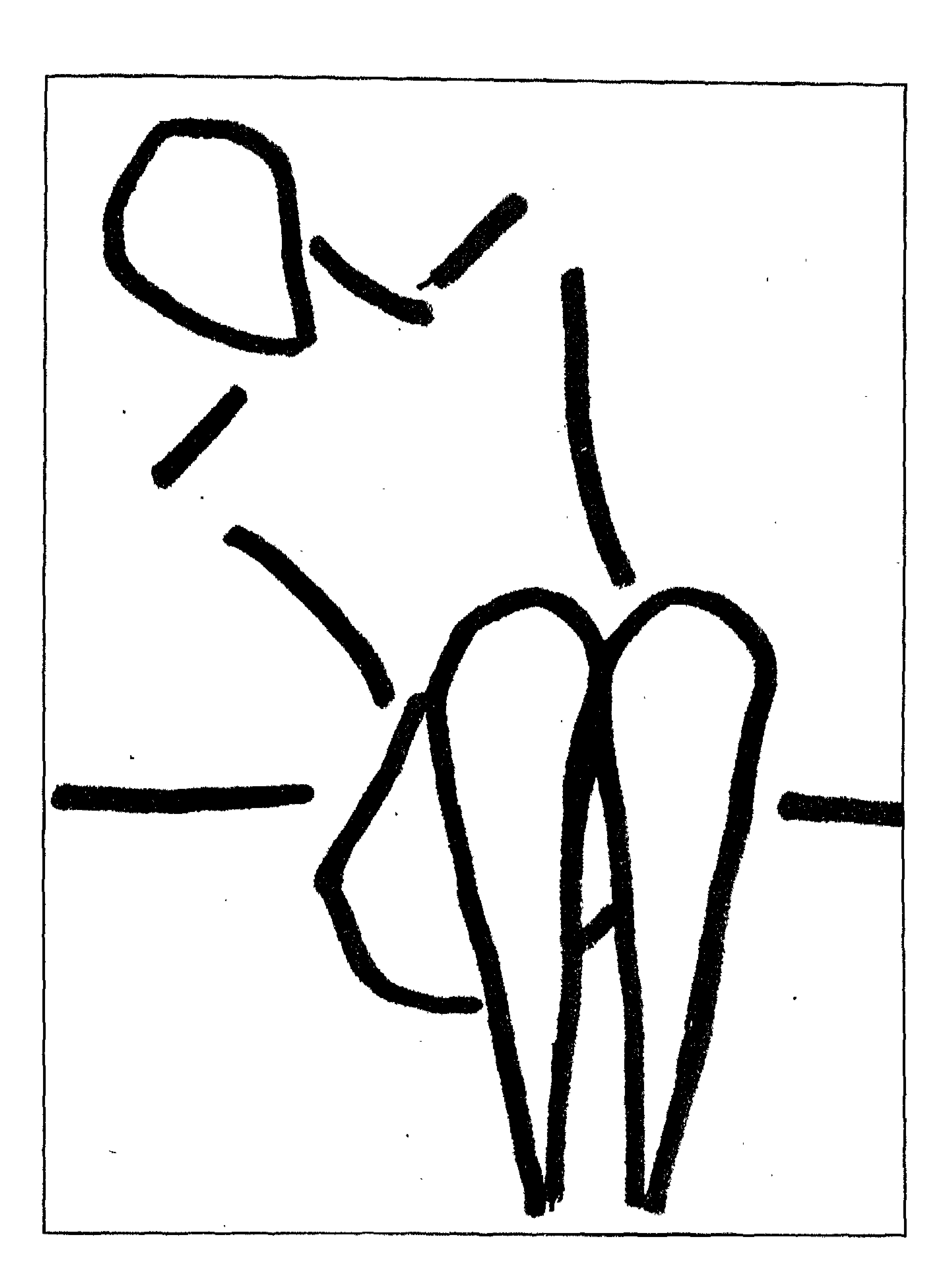
هل كان يقصده هو؟ لم يعرف بماذا يرد. هل يقول سمعاً وطاعة؟ كان قد أخرج سيفه ورفعه كأنه سيجربه فى الهواء، قال بسم الله، وهوى به مرة واحدة على رقبته، فصرخ وهوى إلى الأرض. لم يمت بعد ضربة السيف. لم يمت. كان ما يزال يشعر، وكانت به حياة. سمعه يردد:

وأقتل باسم الله في الصب نفسه فيحيا حياة الصالحين بقتلتى

قال: قم، فقام طائعاً. كان ما يزال يشعر حين سمعه يأمره بحزم: اتق الله حق تقاته، فأومأ صاغراً. طوح السيف فى الهواء باتجاهه فتلقاه بحذر. اندهش. كان سيفاً من ورق وكان يشعر تماماً كأنه مذبوح، فأخبره أنه ما قتل منه بالسيف سوى نفسه الضعيفة التى خدثته فى المرة الأولى، وماطلت فى الثانية. وتعامت فى الثالثة. تساءل كيف عرف ما بنفسه، فقال:

- الظاهر مرآة الباطن.

لم يندهش من طول المدة وهو يرد على أسئلة اللجنة بصراحة غريبة. يقول ما يعلمه وما يشعر به، كأنه يواجه نفسه. لا يعنيه اندهاشهم - وهم يتناوبون إلقاء الأسئلة وينصتون جميعاً للإجابة - ولا انصراف الزملاء من أمام اللجان الأخرى، حتى نظر رئيس اللجنة فى ساعته وقطب حاجبيه وتبادل النظر مع الأعضاء ثم أومأ له بكفه المفرودة لأسفل فتوقف عن الكلام، وبإشارة أخرى جافة من نفس الكف المنبسطة لأعلى انصرف.



كانت الصور المعلقة على تابلوهات خشبية فى الصالة وغرفة المكتب وغرفة الولادة كلها لنساء يبتسمن وفى أحضانهن مواليدهن، وكانت تبدو كأنها التقطت بتلقائية، إذ بدت الابتسامات عريضة ووضعت الأكف بعفوية أمام أفواه مفتوحة أو مضمومة خجلاً من مفاجأة اللحظة. تلك اللحظة التى يتقن أنفسهن فيما بعد للعودة إلى العيادة للتفرج عليها، واستعادتها منذ التقطت لهن عقب الولادة، أو خلال فترة النفاس وهن يخرجن أثداءهن ويبتسمن لأطفال بلا ملامح كأرانب صغيرة، وكن - رغم الأسماء الأولى فقط لهن والأسماء الثلاثية للمواليد - يبدون كأمهات مختلفات لطفل واحد.

كان يتعمد التقاط الصور فى هذه المرحلة الانتقالية، حيث يلحن منسدلات الشعر بأطواق أثوابهن الواسعة التى تشى بأنهن مقبلات على رضاعة طبيعية، ونظراتهن الفرحة والمقبلة على الحياة، بهرمونات الأنوثة المفرطة التى لم تكن قد عادت لطبيعتها بعد، والتى تمنحهن سحراً وجاذبية وتجعلهن كأبقار حانية وهن يتطلعن إلى الكاميرا ببراءة ويحضن أطفالهن. كان يتعمد تسجيل هذه اللحظة تحديداً دون أن يدور بخلده أن العيادة ستتحول إلى أرشيف أو ألبوم كبير للذكريات، وأنهن سيقفن مشدوهات أمام هذه التابلوهات، ولن يتحركن قبل أن تنبثق دموعهن أو تنفرج ابتساماتهن.

هل جاءت إلى هنا كى توضع ضمن ألبوم كبير لأمهات بأطفال يرتدون ذات الملامح وذات الملابس؟ فقد كان يصر على ألا يخرج الطفل المولود من

العيادة إلا وقد ارتدى ملابسه الأولى المكونة من فانلة بيضاء داخلية، وجلباب أصفر أو لبني مفتوح من الخلف بوردة حمراء على الصدر وقماط للسرة وطرطور أسود من التل. يشترى الملابس بنفسه جملة من سوق الإثنين، وتوزعها نازك في أكياس منفصلة وتضع ورقة بخمسة جنيهات جديدة في جيب كل مولود، نقوطاً حتى قبل أن يأخذ أجره. بإيماءة بسيطة منه، تعد نازك للوالدة كوباً من الحلبة الدافئة، تليها في فترة الملاحظة والتي تمتد لساعتين بعد الولادة وجبة من ربع دجاجة وطبقين من أرز وخضار. بانتهاء فترة الملاحظة يزول الخطر ويعود الارتياح إلى الوجوه، فيتحول الهمس إلى ثرثرة، وتتداخل القبلات المهنئة مع بكاء المولود ومناغاته، ويبلغ الصخب منتهاه حين ترن الزغاريد في أرجاء الحجرة التي لم تكن سوى ساحة للصراخ منذ قليل. في هذه اللحظة تحديداً ودون أن ينتبه أحد يضيء فلاش الكاميرا ليثبت اللحظة.

ثمة أسباب كانت تجعلهن يعدن إلى العيادة قبل الأربعين، ليستعملن وسيلة لتنظيم الأسرة، أو للكشف على الطفل أو ختانه، لكنهن في أحيان كثيرة كن يجئن خصيصاً للتفرج على هذا الألبوم، وكان يجد صعوبة كبيرة في تذكرهن بعد الأربعين وقد عدن جميلات ورشيقات كما كن قبل الحمل.

بينما كانت تمر على التابلوهات الخشبية، في الصالة والمكتب وغرفة الاستراحة، كانت في الحقيقة تمضي الوقت بعيداً عن السرير المقبض، والمحاليل. أمضت الوقت في تفقد الصور وقراءة الأسماء، تعرفت على القليلات من بين ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثين صورة، بدا كأن العيادة قد امتلأت، وكأنه لا مكان لها هنا. بحثت عن عزيزة ونهلة، فلم تجدهما، فارتمت على السرير، خائفة تحدق في باب حجرة بسريرين، أحدهما للنوم، مفروش بملاءة وكوفرتة، والآخر طبي للولادة، مقبض ومخيف، على رأسه زجاجة جلوكوز يتدلى منها حبل وريدي بلاستيك معقود كمشنقة. بالحجرة أطباق ممتلئة بالمطهر وأطباق فارغة، وترابيزة عليها آلات وقطن وشاش، ودولاب

زجاجي تطل منه آلات أخرى وأدوية ومستلزمات. ثمة أشباح لنهلة وعزيزة تتقافز في الأركان وتصرخ، كأنها غرفة للقتل وهي تنزوي في الجانب البعيد من السرير بغرفة لا يخفف من الانقباض بها سوى جريد النخل المطل من الشباك المفتوح، وبوستر على الحائط المقابل لنخيل مثمر يميل على مياه زرقاء.

في الجانب البعيد من السرير، كانت تغمض عينيها كأنما تتجاهل الحجرة بكامل محتوياتها، وتتمنى وهي تتحسس الجانب الآخر من السرير لو تنتابها إغفاءة فتعثر على مكان راشد، مطبوعاً على السرير بانخفاضات جسمه وفقرتيه المكسورتين، كأنما قام لتوه متنقلاً بين الحجرات، يفتح كتباً ويصنع قهوة ويدخن سجائر، ثم يخرج إلى الفناء ليتأكد من وجود الحصان ويجلس على المصطبة خلف البوابة محدقاً في النجوم، يتسمع شخير أبيه عبدالمجيد المنتظم، ولا يفطن إلى توقفه إلا بعد أن ينفتح الباب ويفاجأ به واقفاً أمامه يسأله ما الذي أيقظه في هذا التوقيت؟ ويدفعها خلو مكانه في السرير وصهيل الحصان إلى القيام من السرير، والخروج مرة واحدة إلى الفناء، فتزول الكوابيس والأحلام السيئة ويزول الرعب. يعرف عبدالمجيد منذ زمن أن لهذه الحجرة ريحاً ثقيلة وكوابيس مزعجة لا تزول إلا بالخروج إلى هذا الفناء، لذلك فإنه يسارع بفتح باب حجرتهما ويشخط في العفاريت وهو يحدق في أركانها مهوشاً بيده التي بها العصا كأنه يطرد الكتاكيت باتجاه الباب، ثم يشير - كأنه اكتشف سبب الكوابيس - إلى أنهما ليسا ميتين حتى يناما هكذا ورأساهما باتجاه القبلة، وأنه حذرهما أكثر من مرة - متى غربت الشمس وأظلمت الدنيا - من الكنس والخياطة ودلق المياه الساخنة في الحمام، أو الالتقاء بالجنازات أو الالتفات إلى النداء من الخلف، والمشي في ساعة الجمعة على قشر الثوم والبصل والبيض. يحدقان فيه بصمت فيأمرهما بلبس ملابسهما الداخلية بالمقلوب ويحذرهما من عدل فردة الشبشب المقلوبة ويغلق عليهما الباب فينامان حتى عصر اليوم التالي. كان

الأرق يزيد في غياب راشد، فلا تستطيع الدخول إلى الحجرة، تقضى الليل كاملاً في الفناء، يشعر عبدالمجيد بذلك حين يراها تشعل النار وتصنع الشاى وتسمع الحكايات، وحين تتهيأ للنوم فإنه يمد لها فخذه لتنام عليه كطفلة في الفناء.

تحسست مكانه في السرير فلم تجده، فتحت عينيها على محتويات الغرفة: سرير ومحاليل وآلات وأربطة شاش وقطن. كما في الكوابيس السابقة كانت أنفاسها تختنق، وكانت لديها القدرة على التحمل حتى تفتح عينيها وتقوم إلى الباب وتفتحه، فتجد عبدالمجيد بالفناء، فيربت فخذه ويشير إليها مبتسماً إذ يعلم من خروجها المفاجىء ما كانت تعانيه، لتذهب إليه في ارتياح مغمضة العينين وتكمل النوم على ساقه، لكنها طوال هذا الكابوس كانت تعي أن عبدالمجيد الذى ينقذها في كل مرة قد مات، فصرخت بعدما رأت عيناها محتويات الغرفة بصوت فزع:

- ياراشد!

لم تعد بنها قرية ولم تصبح مدينة، منذ نتأت بين الدور الطينية والبهائم المربوطة فى الحقول بيوت من طوب أحمر دون طلاء، ونبتت كما فى المشاتل بعض العمارات الملونة افتتحت أسفلها محلات العصير والمطاعم واستوديوهات التصوير ومحلات الديكور والملابس الجاهزة والحلويات والبقالة وصالونات الحلاقة وكوافيرات النساء، وازدحم على مزلقان الرياح التوفيقى باعة الجبن والسمن والطيور والأسماك الصاحية والفاكهة، وعلى طول الرصيف المحاذى لشريط القطار، افترش الباعة بالملابس المستعملة والإسكافية بالأحذية والبلغ القديمة المركب لها نصف نعل والمرقعة بلوزات جلدية صغيرة، وباعة الكيزان الصاج والأطباق وأكواب الشاى ولمبات الجاز والمحالب والمتارد الفخارية والقرب والأوتاد والفئوس والمقشات والقحوف وصدريات الدمور وألبسة البفت وطواقى الصوف ووبر الجمال، وطلمبات المياه الجوفية وسروج الأحصنة والبرادع والألجمة والحدوات والحبال التيل والشنف والغبطان وأحمال الجمال والمفاتيح والكوالين الحدادى والجلة والعيش الملدن والرقاق والكسكسى والبرغل والشعرية البلدى.

لم تعد قرية ولم تصبح مدينة. قال راشد لنفسه وهو يعبر النفق كتائه فيواجهه تمثال سعد الذى ظل راقداً لشهر كامل على تراب الشارع الذى رصف فيما بعد وأطلق عليه اسمه، قبل أن تثبته الحكومة على قاعدته، فيمد ذراعيه على شىء أمامه كأنه جوال، يحدق فى البعيد بقسوة رجل غامض

من البرونز المغبر بالأتربة والدخان ويشير بيديه، فيبكى المارة من الأطفال ويتسمرون بالأرض ويتبولون على أنفسهم من فرط الرعب الذى يسببه لهم سعد باشا الواقف مستنداً على جوال يجمع فيه الأطفال ولا يمتلىء. مدينة وفى القلب قرية، حتى ولو بنت الحكومة عمارات الأوقاف، وأجرت أدوارها السفلى محلات، وجعلت الساحات بين العمارات سوقاً للخضار والفاكهة وحلقة للأسماك، وافتتحت على سعد زغلول صيدناوى وبيع المصنوعات ومبنى للبريد ومحلات الكساء الشعبى. مدينة وفى الأصل قرية، نمت بشكل سرطانى وعشوائى. ذهب الجمال وبقى البطء والكسل والرتابة. لم تفلح فى تغييرها المدارس والكليات التى أوشكت أن تكمل جامعة ولا هذا العدد من الجرائد والكتب.

اجتاز الشارع، وميدان سعد، وكلما اقترب من البيت تسارعت دقات قلبه. كانت النسوة يقابلنه بهدومهن السوداء ويحدقن فيه ويتهامسن، والرجال بوجوههم الصارمة والحزينة يتناقلون عبارات العزاء، وخرج من ناصية الشارع جمعة أبوالجود، يتبعه إبراهيم عجورة. داهمه هاجس بأن مكروهاً حدث أو سيحدث. عند بوابة الفناء المغلقة، كاد يسقط لولا أن برز له محمد البيه واحتضنه طويلاً على غير العادة، وقبل أن يفلته من حضنه نظر له من أسفل وقال: شد حيلك ما تزعلش.. من قتل يقتل ولو بعد حين. ثم تركه. لم يعرف فيمن يشد حيله، أبيه أم زوجته، قابل زيزى فسألها عمن مات اليوم، فقالت: إمام الفنجرى. تنفس بارتياح وسألها لماذا البوابة مغلقة فقالت: تانت أروى عند أندراوز. انتابه القلق، فاجتاز سوق الخضار إلى شارع المديرية، إنحرف يساراً فبدت عمارة أندراوز مختبئة بين العمارات العالية. كانت أوراق الجريدة تتساقط من بين يديه ونعمات تلمها خلفه وتشير

إلى فوق. لم يكن منتبهاً إلى أنه يصعد السلم الذى هرول عليه أندراوز خلف أبيه بالجفت، ولولا أن هبط أبوه السلم بسرعة لفعلها الحكيم أندراوز وشج رأسه بالجفت عندما ظل يعيد ويزيد فى وصف حالته دون أن يدرك أن حلم أندراوز قد انتهى وهو ينبهه إلى أنه أخذ أكثر من وقته، وأنه اعتدى بذلك على وقت المرضى الآخرين فيقول عبدالمجيد: يامستعجل عطلك الله. ياحبيبى خش فى الموضوع. صبرك ياحكيم باشا، كل واحد له نبى يصلّى عليه. خللى بالك - لا مؤاخذة - طويل وأنا جاى لك فى الكلام. ولما اكتشف أندراوز أنه مصمم على بدء الشكوى تحديداً من تلك اللحظة البعيدة التى خدعه فيها وحقنه بالمخدر ولم يقطع من كتفه كما طلب نصف كيلو لحم لولده راشد. انطوت شكواه على العتاب الجار أكثر من عرض آلامه، وكلما نبهه كان يعود فيستأنف الشكوى من المنطقة التى أوقفه عندها. خلع معطفه بعصبية عندما تبين أنه لن ينتهى فيما لو تركه يحكى، وكتب العلاج بسرعة ورمى الروشتة فى وجهه:

- بلاش شغل الجنان ده يافلاح.

صمت عبدالمجيد فجأة، وقام معتذراً عن الإطالة، فلبس أندرواز المعطف مرة أخرى. أثنى وهو باتجاه الباب على علمه وأخلاقه وذوقه وأدبه وتحمله

لهموم المرضى، وفيما بدا أنه قبول للاعتذار، غير أندراوز من نبرته، وقال إن من حقه عليه أن يسمعه، لكن وقت المرضي الآخرين ليس ملكه كما يعرف.

أشعرت إيماءة عبدالمجيد المنكسرة أندراوز بالحرج، لأنه احتد بشكل لا يليق على مريض ولم يكن يصح، فقام خلفه حتى الباب يربت كتفه، مما شجع عبدالمجيد على الاستدراك بخبث:

- بس فى حاجة صغيرة جداً تنقصك ياحكيم باشا.

وللمزيد من الترضية، نظر إليه أندراوز باهتمام منتظراً أن يذكر هذه الحاجة الناقصة، فتردد كأنه خائف، غير أن الحكيم باشا شجعه، فمال عبدالمجيد على أذنه وعيناه تنظران إلى المرضى الجالسين فى الصالة وقال بصوت عال:

- تنطق الشهادة!

ضج المرضى بالضحك، فسحب الجفت من على المكتب، وهرول خلفه على السلم، لولا أنه أسرع خشية أن يفعلها أندراوز ويفتح رأسه.

وكما تناقل العاملون فى معصرة أبى سرج ومحلج العطار ووابور الثلج إسهامات الحكيم أندراوز فى إنشاء المدارس والملاجىء وعلاج الفقراء فى عيادته وتبنيه برامج غير تقليدية لمكافحة الأوبئة والأمراض المتوطنة، فإنهم لم ينسوا نوادره مع عبدالمجيد، فيضحكون حتى تدمع أعينهم، ويطلبون له الرحمة، ولا يستبعدون أن يكون أندراوز قد نطقها بالفعل ولو فى السر، ومن ثم كانت مطاردته لعبدالمجيد بالجفت لعدم إثارة القلق، خاصة وأنه كان يعامل المسلمين بمودة، ويحفظ آيات كثيرة، وصلت أحياناً إلى نصف القرآن، حتى قيل أنه رد الشيخ إبراهيم عجورة وجمعة أبوالجود وهما يرتلان سورة مريم وهود والنمل، ودائماً ما يخلصون فى نهاية الجلسات إلى أنه - والعلم

عند الله – رجل صالح اجتمع على وداعه الكثير من أهل المدينة والفلاحون من القرى بالطواقي والجلابيب البلدى على الدواب، وإن ظل لغزاً محيراً حتى فى مقبرته التى أقيمت على أرض محايدة.

هبت رائحة برتقال بعنف فالتفتت. رأته قادماً فى بهاء يدفع باب الحجرة. سرت قشعريرة فى ثدييها فاعتراها الاحمرار والخجل. ضمتهما بساعديها كما كانت تحتضن كتب المدرسة وحاولت النهوض من السرير فلم تستطع. انحنى على كفها يلثمه. فانتقل إليها الدفء وشعرت بثدييها يتفتحان واللبن فى عروقهما يسعى للخروج. نفس القشعريرة التى سرت فى جسدها وهم يسندون إليها الميكروفون، دون أن تعرف اسمه لتطلب منه الخروج أو إعلان ما يريد، متعجبة من هذا اليقين الذى كان يساورها بأنه سيستجيب لندائها، هى التى لم تكن علاقتها به قد تجاوزت اليوم الواحد، قبل أن يقتحم القناصة ورجال مكافحة الشغب والقوات الخاصة المجلس ذى الطابقين، يحيطهم كردون. من القوات، وتسد العربات المصفحة مداخل المدينة لتمنع تقدم الناس من طريق الكورنيش أو الشوارع الصغيرة المتفرعة منه باتجاه شارع سوق الخضار:

– اخرج من أجلى أرجوك..

نفس القشعريرة وحشرجة الكلام ورائحة البرتقال التى سرت بخلاياها فتلعثمت ولم تستطع أن تكمل. أطفأت الأنوار وانطلق الرصاص من جميع الاتجاهات نحو الشبابيك والمناور، وغطت القنابل المسيلة للدموع على رائحة البرتقال، واستمرت دفعات الرصاص لمدة تزيد على ربع الساعة حتى امتلأ المكان بالبارود المحترق وامتلأت الصحف بمحللين يفرقون بين البطولة والجريمة، وأطباء نفسيين يشرحون عدم القدرة على التآلف والتكيف

والاضطراب النفسى، وأجمع المحامون - بعد أن حولته المحكمة للمصحة النفسية بعد علاجه بقسم العظام والأعصاب بالدمرداش - على أن الحدث فى حد ذاته بطولة، غير أن فارق التوقيت لم يكن فى صالحه.

ظل مائلا عليها بجسده يلثم يديها ويبكى:

- كيف حالك؟

بيدها التى يلثمها، قربت يديه من بطنها ودمعت:

- كما ترى.. انتظر.

كان صوتها متهدجا، كأنها خائفة. أخذ كفها نحو صدره بحنان:

- قلبى معك.

صرخة طويلة. غليظة. جحوظ فى العينين وجرش على الأسنان وذهول. كشخص يعدم على كرسى كهربائى. صرخة تجاهلت - بخلاف الصرخات الحادة السابقة- تعليماته بالحذق لأسفل، فى نفس واحد غير متقطع وكتم الصوت، وتوسيط الجسم بلا ميل إلى اليمين أو الشمال، وفتح الساقين قدر المستطاع كى تخرج الرأس. «برافو.. طلقة أقوى».. خلص الرأس ولفها، فاعتدل الكتفان باتجاه الخروج. مال بالرأس لأسفل فخرج الكتف الأعلى.. عاد بالرأس لأعلى فخرج الكتف الأسفل، وانزلق الجذع والبطن، وقبل أن تفلت الرجلان كانت يداه تكبلهما، وترفع المولود مقلوبا ومدلى فى الهواء. بنت. ضرب ضرب. صرخت. انتصر راشد، كان يريدها بنتا جميلة. ابتسمت فى إعياء، كانت تراه فى أحلامها ولدا.

- أروى!

كانت صامتة كأنها ستنام. بدا الجزع فى ندائه. المفترض أن تشعر بالراحة بعد أن راحت آلام الولادة، لا أن تكون رخوة هكذا كمن ترغب فى نوم عميق. فصل المشيمة عن الرحم يتبعه صرخة تقترب من صرخة الرأس. لكنها انكمشت فقط كأنما من البرد وبإعياء لا يتناسب مع ما تشعر به من ألم، قالت بصوت غير مفهوم:

- غطينى.

لم يعتد فقدان التواصل بعد الولادة بهذه الدرجة، والوالدة ينتابها صحو

مفاجئ، وابتسامة مجهدة، ربما ينتابها استرخاء المتعب، لا هذا النوم المفاجئ. خطأ ما لابد حدث. اطمأن أولا على النبض. سريع وخافت. يسرع عادة بعد الولادة لكنه يسرع أيضاً مع النزيف الشديد. تراجع عن غسل يديه حين بدا غير مستريح. خلع قفازيه ليقيس الضغط.

– اشرب.

حجر ثقيل ضغط على صدره، حين رآها تلوك لسانها الجاف في حلقها، وتبلل بريقها الجاف شفتيها. قاس الضغط فتلوث ذراعها المرتخى بالدم وتلوثت أذنه. لم يتمكن من قياسه بشكل دقيق. لا تهم الدقة الآن بقدر ما يهمه أن يعرف ما إذا كانت سرعة النبض من إرهاق الولادة أم من نزيف حقيقي. منخفض لكنه معقول. أيكون السبب كتلة الدم المتخثر التى أعقبت انفصال المشيمة؟ بدأ يشعر بالقلق الحقيقي حين ضغط الرحم من أسفل البطن وكان الدم مازال ينزل. أروى؟ يضغط أكثر فيتوقف قليلا ثم يواصل النزول.. علق الجلوكوز، ثم لبنات الرينجر. أيهما أجدى، أن يتشاعم فيثبت كانيولا أخرى قبل اختفاء الأوردة لتعليق محلول الملح فى الذراع الأخرى، لأنه بعد قليل قد لا يتمكن إلا بالفتح جراحيا على وريد، أم يتفاءل ويستمر فى الاجراءات الأولية لوقف النزيف؟

ضغط الرحم وجفف الدم واستكشف قناة الولادة بكاملها من أسفل حتى عنق الرحم فوجدها سليمة. لا تمزق يستدعى خياطة، فمن أين ينزل الدم؟ أروى؟ ازداد ثقل الحجر واستشعر فداحة الخطر حين اكتشف أنه وحيد، لا يملك سوى يدين، ليعلق فى وقت واحد المحاليل، ويضغط الرحم ويدلكه، ويطمئن على الضغط كل خمس دقائق ويستكشف مرة أخرى الوضع من أسفل ويتعامل مع النزيف بكسر الأمبولات وحقنها فى المحلول. لكن التدهور بدا سريعا وغير متوقع ويتطلب دما طازجا.

لو كان فى المستشفى لاستنفر كل شئ فى لحظة: يأمر فتثبت الكانيولا وتعلق المحاليل. يصرخ بكيس دم، فتؤخذ عينة دم ويجرى اختبار توافق

وتعرف الفصيلة ويصرف الدم ويعلق. يقول: تخدير، فتحضر غرفة العمليات حالما يستدعى طبيب التخدير، وتنتشر حوله المرضات والشغالات. لكنه فى العيادة. وحدث ما خشى حدوثه، فبأى شئ يبدأ، وكيف يفكر بشكل منظم؟

– ما الذى يحدث بالضبط؟

لم يكن متفرغا للرد على راشد. والذى يحدث بالضبط لا يعرفه حقيقة. إنما تتركز مخاوفه من نزيف بعد الولادة، الذى تبدأ أسبابه الخمسة عشر بتهتك بسيط فى المهبل لحظة خروج الرأس، وتنتهى بانفجار الرحم. ويتراوح وقف النزيف من مجرد تدليك الرحم من البطن بيد واحدة، أو أخذ غرزة واحدة فى قطع صغير، أو حشو إلى استئصال الرحم بالكامل كى يتوقف فقط النزيف. وأحيانا يا راشد لا يقف.

– لماذا لا ترد؟.. هل أساعدك فى شئ؟

لم يعرف راشد الذى كان يهتم بأشياء هامشية كتغطية زوجته، أو تنظيف المولود الذى اكتشف منذ قليل أنه أنثى من الدم ومخلفات البطن وتلاوة الأذان فى أذنها، أو الرأفة فى ضربها على ظهرها وهى معلقة من ساقيها كى تنتبه وتتنفس وتصرخ، لم يعرف أن وجوده فى الحجرة ولو بصمت يمثل إعاقة، وأنه ليس بوسعه أن يساعده حتى فى طلب سيارة الإسعاف، لأنه سيسأله عن الرقم، وسيطلب وينتظر أن يرد عليه مركز الإسعاف، ولن تسعفه اللغة والكلام فيكثف الطلب والتشخيص للجالس على الطرف الآخر من الخط، ليكتب فى دفتره اسم المبلغ واسم الحالة والتشخيص والعنوان وأقرب الطرق للوصول إليه، ثم يقول: أو لا يقول: شكراً، ويضع السماعة، ليرد مرة أخرى على اتصال مركز الإسعاف الذى يتأكد من نمرة المبلغ وجديته. وإلى أن يطلب راشد الإسعاف تكون الحالة قد تدهورت بشكل مريع.

راودته فكرة الإسعاف ، لكنه أحجم عنها. لايمكن السير فى اتجاهين فى وقت واحد. لابد من قرار وإن كانت كل الخيارات سيئة. اختار التعامل مع

النزيف، خشية أن يضيع الوقت وأملا -كما يحدث كثيرا- فى أن يتوقف النزيف وحده دون سبب طبى معلوم سوى رغبة هذا الجسد فى الحياة، وقد لا يتوقف النزيف رغم جميع الإجراءات ونزوله بملابس الولادة دون نقود أو هوية باعتباره الوحيد الذى لا يصح أن يفارق الحالة، فلا يضيع الوقت ويباشرها فى الطريق باعتباره أعلم المرافقين بإجراءات الدخول، حيث يدفع بالحالة رأسا إلى العمليات فى أقصر وقت ربما دون تذكرة ، ومع ذلك قد لا يتوقف النزيف لا لسبب طبى معروف، إنما لرغبة الجسد الذى ينزف فى الموت.

ازرقت أروى الصغيرة. جأر من أعماقه: يارب. وثقل الحجر على صدره كاد يقضى عليه. أطباء الولادة هم أقصر الأطباء عمرا على وجه العموم باستثناء من يعتزل المهنة قبل الأربعين، يليهم أطباء التخدير الذين ينحصر توترهم على أول لحظات التخدير، والتى ما إن تمر بسلام، يزول التوتر طوال العملية. لماذا يتذكر هذه الإحصائية الآن؟ ولماذا تأتيه نهلة عبدالواحد؟ جذب المولودة وكرر شفط المخاط من فمها، كى يتيح للهواء الدخول إلى الصدر، فاحمرت، عاد إلى الأم: أروى! وجد النزيف حنفية مفتوحة. حقن وحشو وضغط وتدليك: أروى! قطن. شاش. محاليل. من يغير الطبق الكبير أسفل السرير الذى امتلأ بالدم والقطن بشكل مريع. الصغيرة ازرقت يا دكتور. كان يبحث عن وريد فى يد أروى. ترك ذراعها ونظر إلى الصغيرة. عادت إلى الزرقان وكرشة النفس. أمر راشد بنقلها إلى حضانة الأطفال المبتسرين. خطاب تحويل؟ هل الوقت يسمح بمسك قلم؟ أمسك بذراع أروى يبحث عن وريد آخر. أروى!

هذا طريق لا تعرفـه، ولا تجدى فيـه أقـوال من مـروا. تتوه وتصـحـو. لاتسمع حتى صوتها. فقط دم ينساب منها ولا أحد يفهم إشاراتها. من أين يأتي جفاف الحلق الشديد؟ الدنيا غائمة أمام عينيها. أمعاؤها كأنها تخرج من أسـفل. لا تريد سوى أن تشـرب. كأن أحـدا يقـبلـهـا. كأن طـفـلا يبكى. عطش شديد وظمأ لا يرتوى. غيوم مرة أخرى وإظلام كامل ولا جريد نخل عالياً. من أغلق النافذة؟ تهبط لأسـفل كأنها تغوص، فلا دكتور ولا راشد. كستارة ثقيلة أغلقت. الأصوات البعيدة خفتت تماما.. لمسات باردة لهواء حاد وبارد كلما مرق السرير بها كحصان.

ربوتان عـاليـتـان. بينهـمـا هوة سـحـيقـة. تيـه. والحـصـان البنى ذو القوائم البيضاء الذى استراح. جمح فى حقول من ليمون ومروج من نخيل. قدماها مثبتتان بالسرج ويداها ممسكتان باللجام خشية السقوط. خلفها علىٌّ الدين، خـادم الملك. لاحت البوابة التى لفظتـهـمـا، والحراس الذين رفعوا أسـلحـتـهم للتحـيـة يبدون غاية فى الوضـوح، ولم يكن عليـهـا سـوى أن تلوح لاثنى عشر ألفا ومـائتين وخمس وعشـرين من الوصـيـفـات والحـريم، وستة آلاف غـلام يقـفـون فى شـرفـات القـصـر، يتـبـعـهـا على المنحـدر مـوسيـقى ريفيـة وألوان صاخبـة لصبية بطواق كورود بيضاء وبنات بفساتين كنوار تفتح. لم تكن بها رغبة لأن تحـصى كم من الوقت مـر والحـصـان البنى يجـرى بهـا وسط هذه

المروج، ولا كم من الزمن مر حتى تقترب من هذا القصر لترى الشمس ساطعة على التفاحات الذهبية الثلاث، ويتحطم الباب الذى سد بالطوب بعد خروجها منه لأول مرة، ويتناثر الطوب فى كل اتجاه، فتنفتح البوابة الكبيرة التى أعلاها برج وسارية بثلاث تفاحات ذهبية، وتبين الطرق الجانبية مدرجة بالأشجار، والدرجات الحجرية المؤدية إلى الحمامات الملكية، وتصرخ فى فرح حين تراه: عبدالمجيد الصعلوك.. مضحك الملوك؟ فيحنى رأسه ويبتسم، ويعرف الحصان وحده طريقه نحو بهو الريحان، والبركة، ثم الأجنحة الملكية، وبهو السفراء وساحة السرو وقاعة الأختين وفناء الأسود بنافورته المرمر التى يحمل حوضها اثنا عشر أسدا من رخام أبيض فى دائرة. يجوس الحصان داخل الأبهاء الملوكية الفخمة، فتقرأ فى كل ركن من أركانها سورة الملك منقوشة بكاملها.

– خليك مع الحالة يادكتور.

جاءته الأوامر. صعد سلالم الهليوكوبتر مرة أخرى وظل برفقة الحالة. ضابط صف ينظف طائرة رابضة فى دشمة. لمست يده – دون أن ينتبه– مزلاج النجاة أسفل الكرسى، فانفلت الياى، وانطلق المقعد به لأعلى. ارتطم بالسقف الزجاجى المغلق للطائرة الحربية فتهشم واصطدم بسقف الدشمة الخرسانية وارتد إلى الأرض فتهشمت عظامه. أمام استقبال مستشفى الجامعة، جاءته إشارة ليتجه بسيارة الإسعاف إلى الاستاد. فى انتظار هبوط الهليكوبتر. سلم الحالة وفى منتصف سلم الطائرة، جاءه الأمر، فلم يعرف إن كان أمرا باللاسلكى، أو أنه صوت مسعفى الطائرة، أو كان نداء داخليا صرفا.

صعد الطائرة مرة أخرى قلقا كمن نسى شيئا، وأغلق الباب كان يطمئن بين الحين والآخر عليه، يسعفه بالمحاليل والمسكنات والمهدئات. فى ألماظة كانت سيارة أخرى تنتظر لنقل الحالة إلى عبده باشا، المستشفى الفرنساوى. أسعده أن يصل به حيا. وأن تفتح بوابات المستشفى بهذه السرعة، وأن يهتم الموجودون فى الاستقبال، فتفرغ حجرات الأشعة، وتبتلع المصاب ردهات وحجرات حتى وجد دوره ينحسر تماما، يتابع ليس أكثر، يعيد وصف الحادث بصفته طبيب المطار الذى رأى الحادث، كان يرجح أن تكون الإصابة ارتجاجا أو نزيفا بالمخ مع كسور مضاعفة بالعمود الفقرى

والساقين. قالوا: شكرا، فخرج.

قبل البوابة بقليل اكتشف نفسه بالبالطو الأبيض المكرمش على فانلة داخلية، وبنطلون زيتى وشبشب ميرى، منذ خرج من عيادة المطار. لا هوية ولا نقود. تجول بالمستشفى مرة أخرى ليتعرف على أحد الزملاء، فلم يجد. وقف حائرا حتى رأى الرجل النازل من الباب الأمامى للأتوبيس يقول كأنه يذكره: السيدة؟ فصعد من الباب الخلفى. تذاكر. آثر الصمت على شرح ما حدث تذاكر. تفادى نظرات الركاب الذين كانوا يوسعون المكان له كمختل. تذاكر! وقف صامتا، ذراعاه على صدره. كأنه نوى للصلاة، تتأمل عيناه الذين يصعدون. تذاكر يابهوات هناك. ضايقه الصوت. صار الأتوبيس كتلة مضغوطة من البشر، فلم يعد ثمة صعود ولا نزول، فقط ضغط ودفع وعرق واختناق. تذاكر الأخ بالبالطو. صرخ: من أين يجيء هذا الصوت؟ صخب أتبعه سكون. حملق فى الرؤوس، فرأى هامات تنحنى كما فى الركوع. لم يجد غير سكون يقطعه، صوت آمر وملح: اسع. حملق أكثر فى السقف وسط هذا الزحام. اسع. رأى نقوشاً وزخارف ولمبات مضيئة، وأبيات شعر مكتوبة بالكوفى. فى سقف القبة الملونة. الأخ بالبالطو: اسع وصل على النبى. التفت عن يمينه، فامتدت يد جاره لتصافحه بحرارة. كأنه يودعه. مع السلامة. التفت عن شماله فوجد ممرض عيادة المطار:

– حرما يا دكتور.

صافحه باستغراب، ونظر لجدران مصلى المطار الباهت. غابت ملامح المقام والفرش الوثير فى مسجد السيدة الرئيسة أم هاشم. قال: جمعا. وصمت. صمت تماما. هل صار من مجاذيب السيدة؟

كان قلب نعمات قد انقبض فى الليلة الكبيرة حين ضعفت الأنوار وبدأت الخيام تطوى، وسيقت الخراف والعجول والماعز المستبقاة من المولد لتنحر أمام أعتاب البيوت، وتخلخل فى بطء ما بنى خلال أسبوعين، وجمع الناس على عجل ما تبقى من الشاى والسكر والقرفة والخبز الناشف والكحك

ورصوا الحلاوة والحمص ولعب الأطفال والطرابيش بعناية لتوزع مع اللحوم على الأهل والجيران ممن لم يشهدوا المولد، فلا تنقطع لهم عادة.

انقبض قلب نعمات، وظلت ساهمة والقطار يعود، واستشعرت ما سيحدث والمحطة تمر أمام عينيها وينزل زوجها دون أن تستطيع النزول، فيتسحب القطار إلى باب الحديد، وتخلع نعليها من باب الخلق حيث يبدأ زمام السيدة، ومن الأدب ألا تنتعل شيئاً حتى تتلمس أصابعها المقصورة المذهبة، متوسلة بصوت متهدج أن تنقذها من مصطفى علوان الذى اشترط أن تكون طالقا بالثلاثة لو عادت من المولد دون أن تسدد الدين، وأصر أن يرمى زوجها أمامه اليمين ويعلقه بانتهاء مولد شيخ العرب وعدم القدرة على السداد، فوعدتها الرئيسة أن لا يفوتها بعد الآن مولد، وأمرتها أن تأخذ من أحمد باشا راشد ثلاثين جنيها، وإن طلب دليلا، فهو لا ينام حتى يصلى على جدها كل ليلة مائة مرة. انتبهت من غفوتها فقبلت الأعتاب ورفعت رأسها كمن تفيق من حلم لم يكتمل، خرجت تتفرس الوجوه فى ضوء أعمدة الإنارة الشحيحة حول المسجد، خفيفة كمن تسير على الماء بين الدكاكين المغلقة والمقاهى التى ترفع أبوابها الصاج استعداداً ليوم جديد. سألت رجلا جالسا على المقهى يرتدى الخيش، أين تجد أحمد باشا راشد. انتصب الرجل مرة واحدة وسار أمامها:

- وعايزة إيه من أحمد باشا راشد؟

- ثلاثين جنيه!

- بتوع إيه؟

- أصل الست أم هاشم هى اللى قالت لى.

- أيوه قالتلك إيه بالضبط؟

- بتقولك الست هات تلاتين جنيه بأمارة ما بتصلى على جدها ميت مرة قبل ما تنام.

كان يتوقف بين الحين والآخر كأنه لا يصدق:

– أيوه قالت لك الست إيه؟

كررت ما رأته تماما. لكنه كان يتوقف كل درجتين ويمصمص شفتيه ويتساءل:

– الست اللي قالت لك كده؟

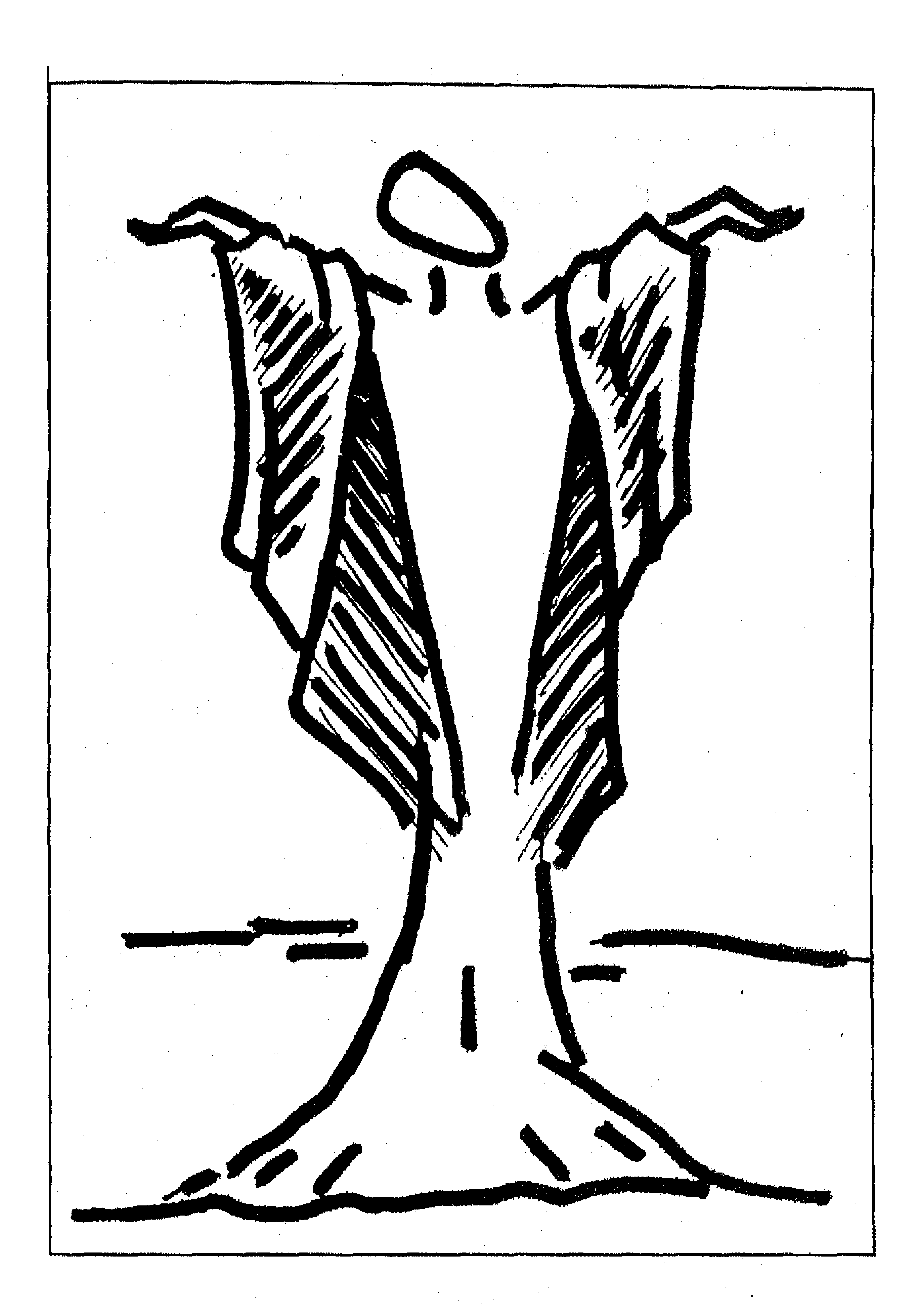
– غريبة! سمعيني تاني.

– لو مش هتوصلني للباشا، قولي امشي، لكن مستهترش بيه.

ونزلت، السلم فانزعج الرجل وفتح باب شقة قديمة، وعد لها تسعين جنيها، وأغلق الباب وهو يقول لها: يا عبيطة! في المصلي على النهر بعد ذلك بسنوات قال له سيد عبدالعال: إن نعمات عبيطة بالفعل لأنها لو كررت ما قالته رئيسة الديوان على مسامع الباشا لأعطاها عن كل مرة ثلاثين جنيها.

مع آذان الجمعة هبطت نعمات من القطار، تلطم خديها وتحدق في كيس النقود الفارغ وتفتش في ذهول بهدومها عن النقود، فلجأت إلى الشوارع المهجورة والمقابر، وحول مبخرة البرتقال، وعلى حافة الرياح التوفيقي، تحوم حول المدينة هربا من مصطفى علوان، الذي أجبر زوجها على تنفيذ يمينه ليستمتع بمطاردتها كغزال شارد بجرمها الدقيق وعينيها الخضراوين. يطاردها بحصانه طوال النهار ويعود متعبا، لا يحرمه من النوم سوى نباح كلاب توشك أن تنهشه، إلى أن استيقظ ذات صباح على عضة كلب حقيقية تنزف من ظهره، طهرها له أندراوز ثم حوله إلى عيادة الكلب ليحقن في جدار بطنه بمصل الكلب. ولم يتبين مصطفى علوان صاحب مصانع الطوب إن كانت كلابا حقيقية أم مجرد هواجس، إلا في العضة الثالثة حين خاطب أندراوز البندر فانتشر في المدينة صائدو الكلاب الضالة. سبع عضات جعلت مصطفى علوان يصرخ حين رأى نعمات لأول مرة برفقة سبعة كلاب، ويعترف على الملأ بأنه تاب عن إقراض النقود بالربا ومطاردة النساء، وانتظم في التردد على جامع البحر وتبرع بمائة ألف طوبة لمسجد الضعيف وعصفور وأبي نوار، بيد أنه لم يستمتع بالنوم إلا بعد أن أخذه محمد البيه

إلى شاطئ النهر وأمره أن يرمي اليمين بالثلاثة على نعمات، وأن يطلقها أيضاً في الظاهر على يد مأذون شرعي، لكن نعمات كانت في ذلك الوقت هائمة في ملكوتها الخاص، لا تعي أنها تنطق كل حين بما في بطون الحوامل، أو تنبئ البعض بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، إلى أن التزمت الصمت تماما على رصيف المستشفى الأميري.



كان يقاوم النزيف بتدليك الرحم وحقن المحاليل وأمبولات الميثرجين والكالسيوم والانزابروست، وحشو القطن، وكان الحجر الثقيل يرتفع قليلا عن صدره كلما هدأ النزيف، فيطمئنها بنبرة تشي بالفرح، وعندما تشير له متسائلة عن حالة أروى الصغيرة التى ذهب بها راشد إلى مستشفى الأطفال ، فإنه يقول بنفس النبرة المتفائلة إنها تحتاج جلسة واحدة فى الحضانة تحت خيمة الأكسجين وترجع جميلة وصحيحة، وأن عليها أن تكون مع نفسها فقط فهؤلاء الأطفال باندفاعهم الفطرى نحو الحياة، يتخطون ظروفا أكثر خطورة وينتصرون فقط برغبة الحياة. تشير إليه بأنها مجهدة ، فيقول إنها ستنسى كل شئ بمجرد عودة أروى الصغيرة، ويصير ما حدث مجرد ذكرى، تثيرها الصورة التى ستوضع عما قليل فى التابلوه. بدت مطمئنة إلى كلامه الذى يسرى كالمخدر فى جسدها وتغمض عينيها على ابتسامة فى سلام. انتهى من إيقاف النزيف فوجدها رخوة وغير منتبهة لما يفعله، كطفلة خلدت إلى نوم عميق على بساط سيطير، شفافة تبتسم. تناهى إليه أذان العصر متراميا من جامع البحر ، رائقا ومرجعا بالصدى كأنه الفجر، ولاح الكون فى سكونه وصمته. المطبق أشبه بكائن خرافى هاجع وناعس. جالت عيناه فى الغرفة، فراعته كمية الأمبولات الفارغة والقطن وطبق الدم الممتلئ.

- أروى.. هل أنت منتبهة؟

لم ترد. كانت نظرتها المبتسمة والمتطلعة قد تحولت إلى نظرة مغادرة، ثابتة ومستسلمة، فيما ترامى الصوت من كل اتجاه مرجعا:

وعند زوال الحس فالجرح فرحة وذي رتب فيها اتساع المدارك

ألا إنما يسرى المريد على يدى وكل فتى ينأى فليس بسالك

ارتج السرير بعنف. انتقلت الحجرة من مكانها ثم عادت. كواقف على سطح مركب اصطدم بالشط. اختل توازنه. ارتج كل شئ بعنف مرة أخرى، فسقط التليفزيون وانفصلت مروحة السقف .. طقطقة أشياء تنفصل عنوة . ودوى كتل تصطدم بعنف كأنما عمارة أندراوز كلها تتزعزع .

لم يعرف منذ انبثق من الحائط الذى تصدع نور كأنه البرق. ما الذى يفعله ، يصرخ أم يهرع أم يثبت فى موضعه حتى ينتهى كل شيء ؟

كان النور أكثر نصوعا من البرق ، فلم يستطع أن يفتح عينيه . مدت له راحتها. إنجلى عن قلبه حجاب . ضوء أبيض لنهار يطلع فى سماء صافية ، يواصل الطلوع والبياض وهى ترفل أمامه كقطعة من بللور ، تزداد شفافيتها كلما اخترقت به حجابا. لم يعد يشعر بملمس راحتها، إنما يجذبه خلفها الضوء وهى توغل فى نور خالص حيث لم تعد تنزف. اخترقت به سبعين حجاباً وأستارا خفيفة وكثيفة ، نحو شمس كبيرة مشرقة . كانت فى انطلاقها تزيح بذراعيها الأغصان الرقيقة، فتنبعث الموسيقى من كل الأجواء ، ويسيل الضوء كما الماء . مرا بأفراد وأقطاب وأوتاد وأبدال وأشبال وأولياء وأمجاد وصلحاء وأنجاب ونقباء وأحباب وأكياس . اخترقت حجابا، فرأى رجلا بعباءة خضراء يخطب فى حشد كبير من أهل الأحوال المنشغلين عن بعضهم ، كل فى شأنه ، العارف والمحب والشغوف والذاكر والمتفكر والمعتبر والناطق والصامت والمستغرق والصائم والقائم والهائم والصائم المفطر والصائم الصائن والقائم الدائم والنائم الواصل والواصل الساهر والهائم الفاكر والواقف الذاهل والذاهل الحائر والحائر الذاكر والداهش الواله والواهم الباكى والباسم الشاكى والمقبوض المشدود والضاحك المستبشر

والخائف الوجل والمختلط والمتوله والموله والصائح والنائح .

وكان ينشد فيهم :

ولا خـوف عليكـم حيث كنتم	فأرض اللـه خـردلة أمامى
فإن شئتم ذرونى حيث أقضى	بعلمى فـى البدايـة والختـام
فما غـيـرى بدنياكـم عليـم	وما قمتم بأخـراكم مقـامى

ينشد فيتمايلون . ينشد فيترجمون ويصرخون بألسنة مختلفة ، ويغلب عليهم الحال فيمزقون الثياب ، ثم يتوبون توبة الهداية وتوبة الكفاية ، ينشد فيتوبون توبة الخواص عما خطر لهم واختلج فى أسرارهم . أخترقت حجابا . لم تعد عيناه قادرتين على التحديق ، كلما اقترب من شمس كبيرة ومضيئة . اخترقت حجابا . لم يعد يرى الرجل بالعباءة الخضراء . فقط صدى صوته الذى يسمعه . هل كان شيخه سيد عبدالعال ؟ لم يعد يشعر بملمس راحتها وهى تزيح الأستار . كأنه وحيد إلا من صدى صوت ينشد :

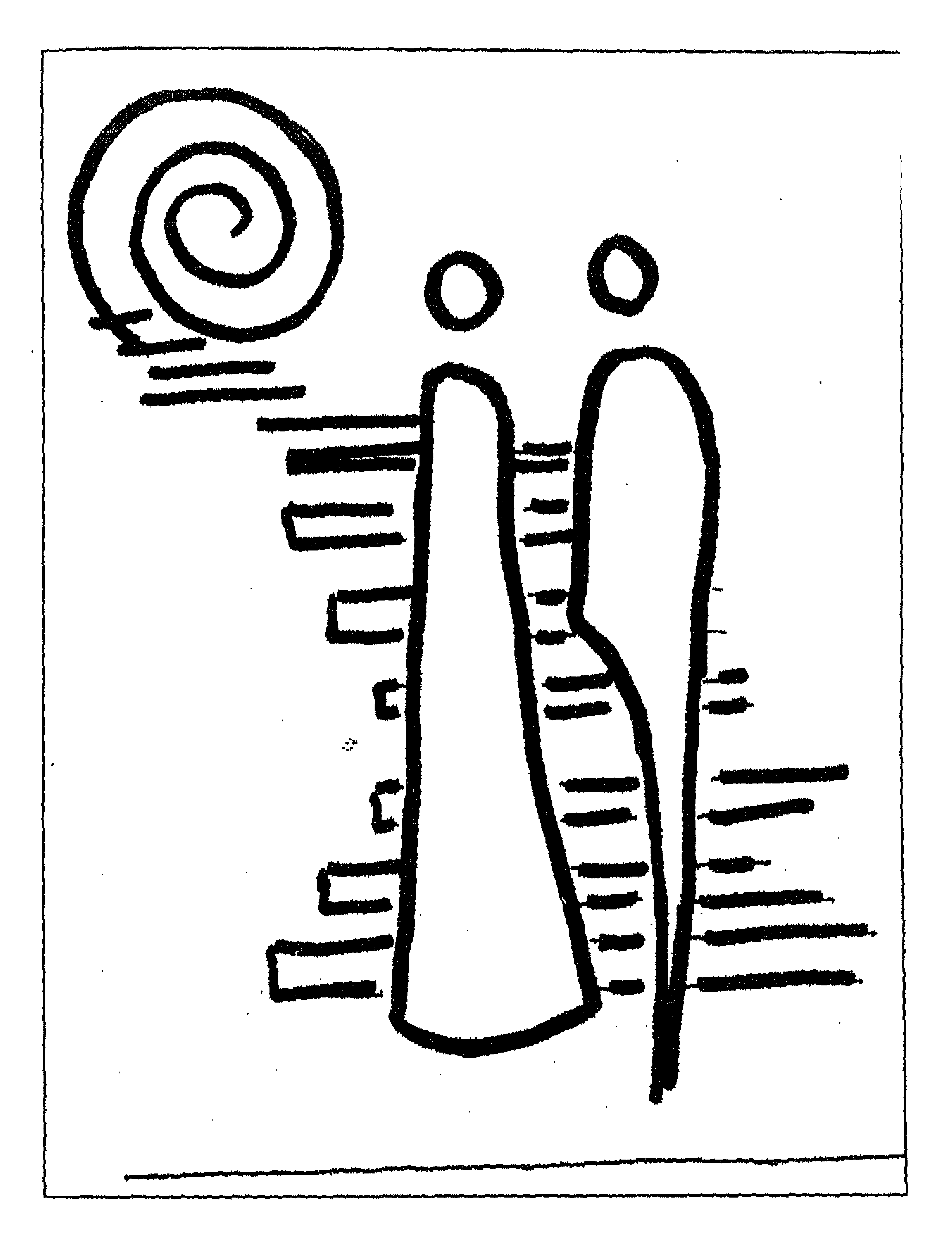
وإن آنسـت نـارا فاتبعنـى	تجـدنى عند حالكها ضياء
وإن أوجست كان الأمن عندى	لتسمـو الـروح آمنـة سمـاء

من أى اتجاه يأتى الصوت ؟

لم يعد يراها أو يرى الابتسامة الشاحبة ولا ملامح الرضا والتسليم التى كانت فى وجهها . كان حريصا هذه المرة ألا ينشغل بأى شىء ، فلم يلتفت .

صار غير منتبه إليها تماما . كان مستغرقا ونور الإشراق يغمر كل شىء، فأخذه حبيبه من إياه وأفناه عن فناه ، ونودى : ماذا ترى الآن ؟

فلم يرد . كان يراه وحده حينئذ ، لاشىء معه ، لا غيره ولا سواه ، يحيط بكل شىء ، ماثل فى كل شىء . قيل : فماذا تريد ؟ فلم يقل حتى : أريد ألا أريد .



أمام مزلقان قطار الزقازيق على الرياح التوفيقى ، توقف باهى السائح عن الإنشاد . كان قد عبر شارع المديرية لأول مرة فى الصباح ، وانحرف بالعربة حتى التمثال ، وعبر النفق أسفل السكة الحديد رغم زحام سوق الاثنين . وعند المزلقان، برك الحصان ، يبرك الجمل ، فتوقف الصبى عن دق الدف، ونزل باهى عن العربة ، وتوجه إلى عامل المزلقان والشرطى المرافق له وكانا يأكلان . السلام عليكم . عليكم السلام . ألا يوجد هنا مكان يصلح للمرء أن يموت فيه ؟ ضحك عامل المزلقان والشاويش ، وأشارا إلى مكان قريب تظلله ست الحسن. كان غارقا فى العرق حتى إبطيه فشكرهم وذهب حيث أشارا ، فوجد حنفية فجدد وضوءه ، وصلى فى مصلى عامل المزلقان ، ثم توجه إلى المكان الذى أشارا إليه ، فمد ساقيه ثم مات .

استولى الهلع على الناس فى الشوارع ، وهرع المصلون من جامع البحر، ونظروا فى الشوارع فى ذهول ، وترك الباعة محلاتهم مرعوبين ، فالتقوا بالأفواج التى خرجت من محلج العطار . وكان راشد لايشغله شىء سوى الوصول إلى مستشفى الأطفال وهو يحمل طفلته الزرقاء الملفوفة بالقطن ، ويشير إلى السيارات فلا تتوقف ، دون أن ينتبه حتى إلى سبب الجلبة ، أو يدرك سوى أن رجليه ارتبكتا قليلا ، كأن الأرض تحركت ، أو اهتزت ، وحين هم بدخول المستشفى وجد أفواجا من المرضى والمرضات والأطباء يستقبلونه فى ذهول ، فوق مكتب الطبيب بالاستقبال وضع طفلته ،

فقال الطبيب على الفور : دخول أطفال مبتسرين ، ثم نادى الممرضة ، التى بكت ورفضت الطلوع. وقدمت تلهث نغمات الملط ، أمامها الكلاب السبعة فى حالة رعب ، وهى تضع صرة كبيرة على المكتب وتهز راشد فى رجاء . وبصعوبة بالغة فهم منها أن عمارة أندراوز انهارت ، وقد شقت الغبار امرأة تمتطى حصانا بنيا ذا قوائم بيضاء ، وهذه الصرة سقطت منها ، ثم تركته لتعود إلى جلستها المعتادة بجوار سور المستشفى الأميرى . كان بالصرة سبعة مكعبات من ذهب خالص ، وغزالة نافرة من الفضة وعقد من اللؤلؤ المنفرط وثلاث تفاحات من ذهب ، وسورة الملك مكتوبة كاملة بماء الذهب على بساط من سندس مطوى بعناية .

لعشر سنوات، ظل الرجل ذو الجلباب الأبيض مواظبا على جلسته القرفصاء ، جاعلا ظهره لعمر أفندى ووجهه إلى عمارة أندراوز التى انهارت ، وأعيد بناؤها وتسكينها ، دون أن يبرح جلسته تلك كل اثنين متطلعا إلى شرفة فى ذهنه هو بين يديه أوراق (شراب الوصل) ★ التى اصفرت عن مائة وأربعة وعشرين قصيدة تبدأ بالتائية وعدد أبياتها أربعمائة وثلاثة وعشرون بيتا . لايقوم إلا بعد أن يتلوها كاملة ، حيث يكون جسمه قد تصبب عرقا ، حتى أن نجاح تشفق عليه وتصر - ربما بدافع امتنان قديم - أن تناوله ساندوتش وكوب ماء من مطعم النجاح أسفل العمارة الجديدة ، فيرفع يديه خلف أذنيه فى صمت وينصرف كأنه لايراها ، دون أن تعرف إن كان يشكرها أم ينوى للصلاة وهو يتجه إلى حيث لايعرف أحد .

بعد أن تجاوزت سيارة حمراء عمر أفندى بمسافة ، توقفت ورجعت إلى الخلف بحذاء الرصيف . نزل صاحبها وأغلق الباب بسرعة ، متجها إلى واجهة عمر أفندى كأنه يبحث عن شىء تذكره فجأة . وفيما عثر عليه وقرر التوجه للداخل ، انتبه إلى مصدر الصوت :

★ شراب الوصل : للإمام فخر الدين الشيخ محمد عثمان عبده البرهانى

- عادل الجندى ؟ توقف ووقعت عيناه على الجالس يشير بإصبعه نحوه ، لم يعرف إن كان يستدعيه أو يمنعه من الدخول . عصر ذهنه لبرهة محاولا التذكر ، بيد أنه لم يفلح ، فاستأنف الدخول ، لكن الجالس فاجأه :

- لاتجىء إلا حينما نطلبك !

ميز الصوت، فالتفت مستغربا :

- معقولة ؟

فى مدينة صغيرة بلا لافتات ، كان الغريب القادم من بنى عبيد، مركز دكرنس، كأنه خارج فى سبيل الله ، يحمل فى كتفه حقيبة بها جلباب وشبشب وفوطة وكتاب فى النساء والتوليد وخطاب استلام العمل ، يسأل أحد العابرين عن سكة المستشفى الأميرى . أمام باب المستشفى لم يتركه العابر حتى أدخله مكتب الإدارة، وأشار إلى سكن الأطباء .

فى كشك الولادة رآه ، وفى المرور على الحالات، وفى عيادة النساء وتنظيم الأسرة وفى غرفة العمليات وحجرة الغيار . لم يأخذ الغريب الآتى من دكرنس من العابر أصول الولادة والجراحة فقط ، بل أخذ أسلوبه فى معاملة المرضى وذويهم وطريقته فى اتخاذ القرارات الطبية ، حتى طريقته فى إبداء الملاحظات .

صرخ من الدهشة :

- معلمى .. أيها العابر ما هذه الصدفة ؟

وأخذه فى حضنه ، فأذهله الهزال، وهو يربت ظهره ويقبل كتفيه :

- هل علمت أنك الوحيد الذى نجح من بين ثلاثة وأربعين طبيبا تقدموا لامتحان الماجستير فى ١٩٩٢ ؟

ترقرقت عيناه بالدموع ، فيما لم يبد أنه اهتم بما سمع :

-- المهم كيف حالك ؟

- مازلت أحيا كما ترى ..

- أعرف .. وتزوجت أميمة ، وافتتحت مستشفى الحياة ، وأسميت أسماء

وإبراهيم ومحمد .

- الفضل يرجع إليك .

- وما أحوال بنى عبيد ؟

- لم أذهب إلى هناك منذ سنوات .

- لم تسألنى لماذا طلبتك ؟

- وهل طلبتنى ؟

مررت بالصدفة ورأيت «عمر أفندى»، فتذكرت أشياء تنقصنى .

- الحقيبة والجلباب والشبشب ؟

- نعم !

نقره فى رأسه بمحبة وعتاب :

- أما زلت تعتقد أنها صدفة ؟

ألجمته الدهشة . غاب فجأة كل ما حدث خلال عشر سنوات، ولم يبق سوى خضوعه القديم، كأنه عاد لتوه من بنى عبيد إلى هذه المدينة الصغيرة، يسأل عن الطريق إلى المستشفى:

- فيم طلبتنى ؟

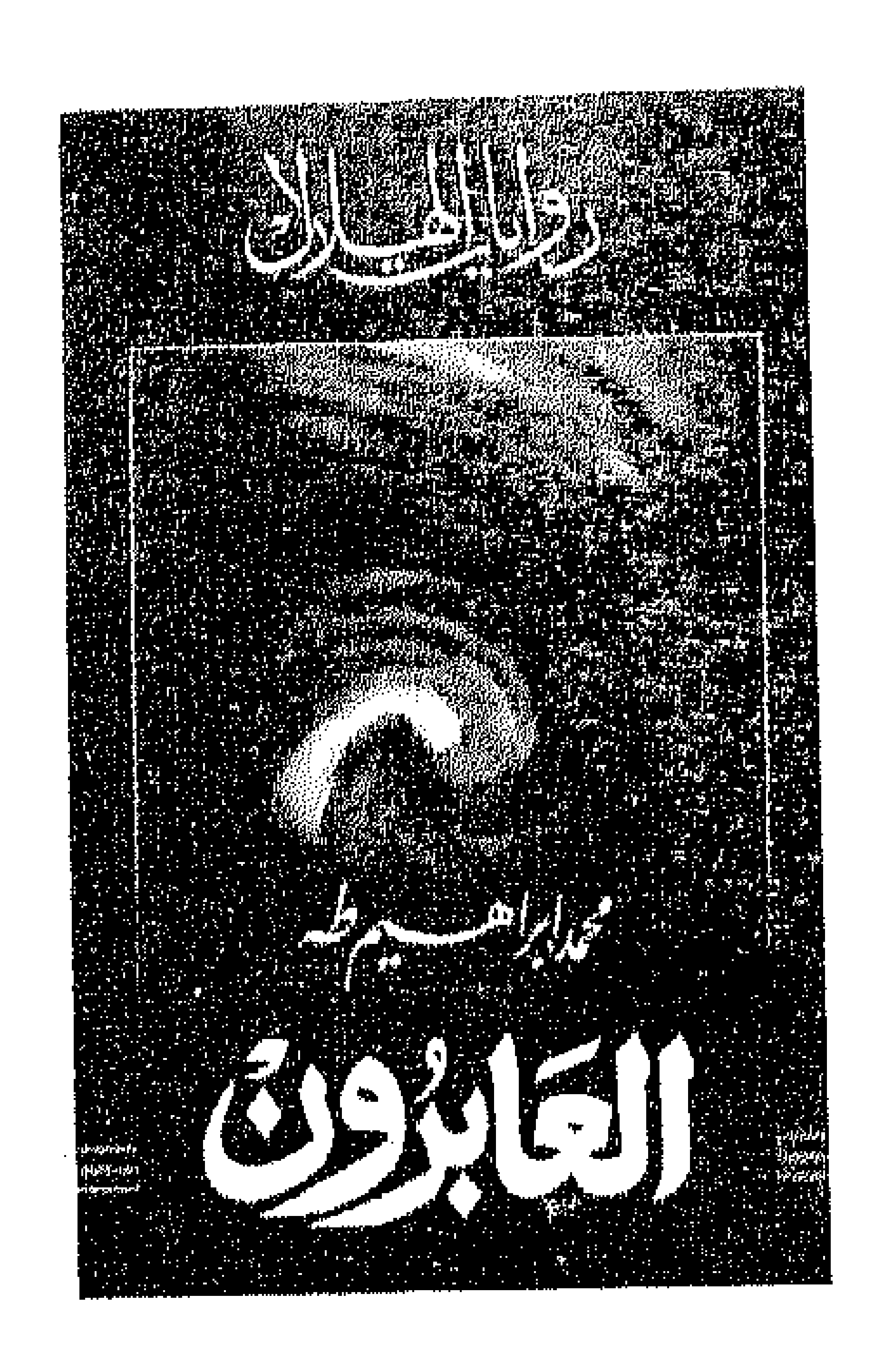
أومأ له أن يدخل ويشترى ما انتوى شراءه ، وحين خرج نظر مليا إلى الحقيبة وفتحها ثم وضع فيها «شراب الوصل» وأمره أن يتبعه .

سارا باتجاه النهر ، وظلا يوغلان فى البعد حتى تلاشيا .

تمت : يناير ٢٠٠٣

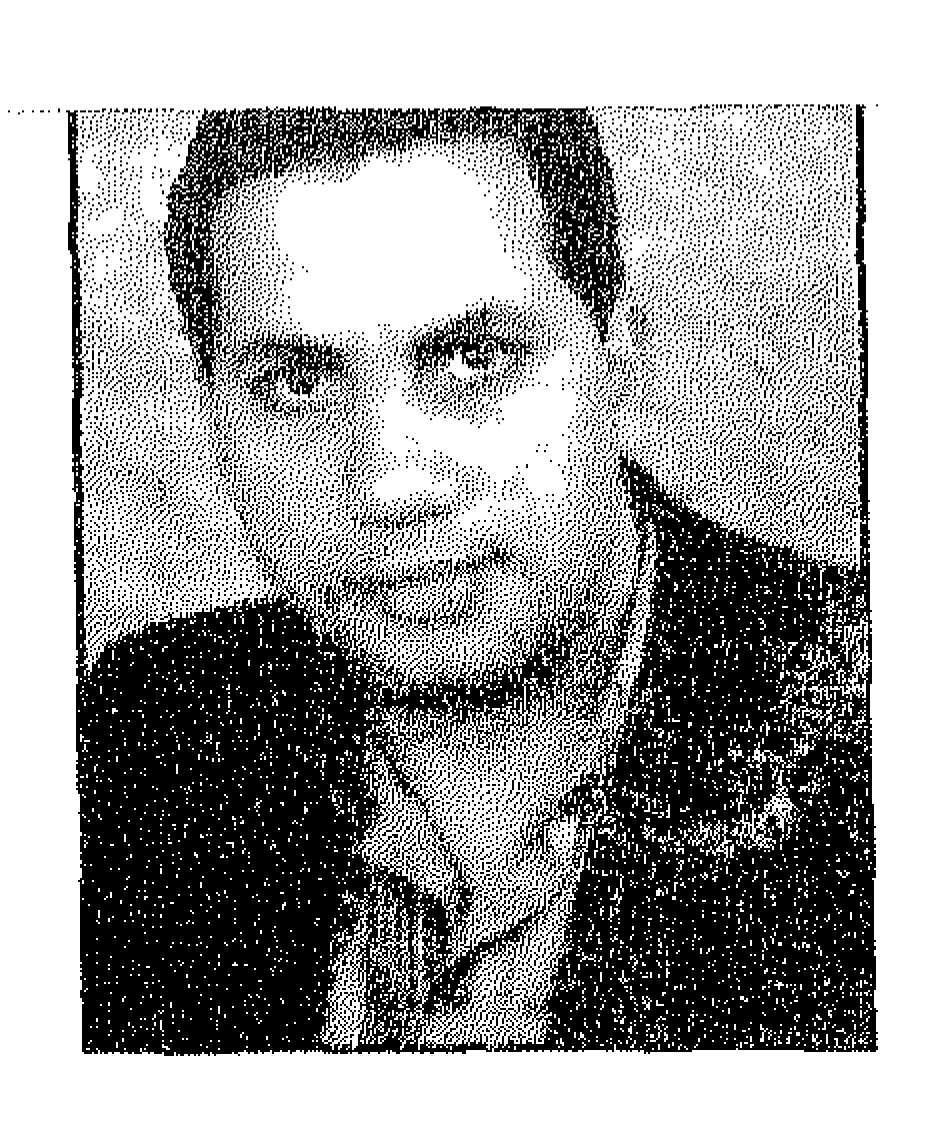
رقم الإيداع : ٨٦١٤/ ٢٠٠٤
I.S.B.N
977- 07- 1039-3

العــــابرون



فى مكان هادىء يحتضنه النهر ، مكان لم يعد قرية ولم يصبح مدينة ، ينفتح على الماضي أكثر منه على الحاضر ، وينجذب إلى الأسطورة والخرافة أكثر منها إلى العلم ، يتحول بطل العابرون - إثر هاتف داخلى - من غمار حياته العملية إلى حياة روحية محكومة بمنطق مختلف ورؤية أرحب وفلسفة بسيطة ، فهل تكون التجربة ارتحالا من الكون إلى المكون، ومعراجا للروح نحو النور والحق والجمال ، أم هروبا مجانيا من الحياة ؟

ثمة خطوط درامية أخرى تتقاطع مع هذا الخط الرئيسى للرواية من خلال أحداث كثيرة وشخوص غريبة ينتظمها جميعا ذلك الدوران - اقترابا وابتعادا- حول الواقع ، وتحطيم الحواجز الفاصلة بين المظهر والجوهر، الماضى والحاضر، العقل والجنون ، الواقع والأسطورة ، التعاليم الشكلية والشطحات الصوفية ، حيث يتبدي اهتمام الرواية الأساس بالروحى لا المادة والباطن لا الظاهر ، فتتداخل الأزمنة وتتقاطع الشخصيات وتتفرع الأحداث لتشكل - مع نهاية هذه المتاهة الروائية - عوالم مكتملة ومدهشة تنطلق جميعها من قلب الواقع .



محمد إبراهيم طه

● قـاص وروائى ، من مواليد مركز بنها - محافظة القليوبية فى ١٩ مارس ١٩٦٣ .

● يعمل طبيبا .

● عضو اتحاد الكتاب ، ونادى القصة ، وجمعية الأدباء .

● صدرت له :

(١) «توتة مائلة على نهر» قصص قصيرة .

- هيئة قصور الثقافة - سلسلة أصوات أدبية (أبريل ١٩٩٨) .

(٢) «سقوط النوار» رواية .

- طبعة أولى : دائرة الثقافة والإعلام بالإمارات العربية المتحدة (٢٠٠١) .

- طبعة ثانية : هيئة قصور الثقافة .

- القاهرة (٢٠٠١) .

● حائز على :

- جائزة الدولة التشجيعية عام ٢٠٠١ عن مجموعة «توتة مائلة على نهر» .

- جائزة الشارقة للإبداع الأدبى ، المركز الأول ، فى الدورة الرابعة ٢٠٠٠ ، عن رواية «سقوط النوار» .



عدد ديسمبر ٢٠٠٥

دموع الجيوكندة

للكاتبة المصرية

نادية شكري

تصدر ١٥ ديسمبر ٢٠٠٥



أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

آداب الرسول صلى الله عليه وسلم
محمد إسماعيل الجاويش

رجال ونساء من أمثال العرب
محمد إسماعيل الجاويش

حكايات من أمثال العرب
محمد إسماعيل الجاويش

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ... الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقي ... روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع - ٤ شارع بدوى محرم بك - الإسكندرية .